طه وادى

الأفق البعيد





دكتور طـه وادى



(رواية)



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

إلى ..

البراعم الخضراء

والشجر المورق

في الصحراء

طه وادي

(١)

١ × ١ = ١

طوبى لمن يزرعون الأمل
في أرض بائرة

أطفئت أضواء الصالة. تجمع الحاضرون حول مائـدة مستديـرة. الشموع أضاءت قطعة كبيرة من التورتة وحلويات مختلفة، وأشاعت ضوءًا خابيًا على المتزاحمين..

هابى برث ديى تو يو
هابى برث ديى تو يو
هابى برث ديى تو زينب
هابى برث ديى تو زينب

وحيد عزت زوج زينب بكرشه الضخم كان أسبق الحاضرين إلى إطفاء الشموع. ضغط بريقع العفيفى فى عصبية على مفتاح النور، وهو يصيح ساخرًا:

– ملعون أبو الظلام، يحيا النور.

زينب فى الضوء أميرة من أميرات العصور الوسطى، قبلها زوجها وحيد والصديقات. بدأ الأصدقاء يسلمون فى هدوء، صافحها بريقع فى حرارة قائلا:

– كل سنة وأنت طيبة يا مدام زينب.

ضغط على يدها اليمنى وانحنى مقبلا إياها:

– تكفى هذه القبلة بحكم التقاليد.

غضّت زينب بصرها فى خجل، بينما نظر إليه زوجها فى غيظ.

بدأ الجميع يأكلون ويشربون الشاى. ساعة الأكل يتوه العقل. أثاث البيت فى الضوء بدا فاخرًا وعصريًا. كل ركن به تحفة، كل زاوية بها لمسة فنية. وقف بريقع مشدوهًا أمام صورة للجيوكندا وهو يقول فى داخله: (العزّ وزّ يا أولاد الكلب)، بينما يضع قطعة كبيرة من التورتة فى فمه.

فى شرفة تطل على حديقة الفيلا كانت أميرة تقف وحدها، كأنما تناجى القمر، ولا قمر فى السماء. دخل فتحى عبد الكريم، لم تشعر به، وصل إلى جوارها:

- أنت وحدك؟

- لا أحب الزحام، سيجارة لو سمحت.

تأمل صدرها الناهد على ضوء الولاعة:

- نشاطك غير ملحوظ هذه الأيام.

- ملل.

قذف بعقب السيجارة بعيدًا:

- ملل أم حب؟

- نحن فى زمن لا ينبت إلا الجراح.

دخل بريقع العفيفى إلى الشرفة عابثًا يسبقه صوته:

- كل الأحبة اثنين اثنين. (اصطنع المفاجأة)، آسف، لم أكن أعلم!!

نظرت إليه أميرة فى احتقار:

- أهلا يا أبو دلامة.

- من أبو دلامة هذا يافتحى بك؟

انضم إليهم ربيع سيف الدولة، البدلة عليه تبدو واسعة أكثر من اللازم.

- من ابتدع هذه الموضات الزائفة؟

- ماذا تقصد؟ ردت أميرة.

- لن تقدرى على مناقشة الشيخ ربيع. ردّ فتحى.

- هيا إلى الشلة كوب شاى أو قطعة جاتوه أفضل من هذه المناقشات البيزنطية.

صاح بريقع وهو يسبقهم إلى الصالة. قلّ عدد الحاضرين بشكل ملحوظ. شاع هدوء مريح. قال حازم حسام الدين فى هدوء:

- نخفف الأضواء إذا كان هذا لا يضايق أحدًا.

أضاف سمير ميخائيل وهم يجلسون فى حجرة صالون فخم:

– قليل من الخمر....

قاطعه بريقع مكملا فى سخرية: يصلح ما أفسده الدهر.

قال ربيع فى عصبية: لا أحب هذه السخرية.

دخلت مدام زينب أمامهـا مائـدة فضية بعجـل، عليها زجـاجة ويسكى، إناء ثلج، أكواب، مزة مختلفة، بيرة، صودا، ماء مثلج، عصير ليمون.

نظر حازم إلى نتيجة على الحائط كان التاريخ ٢٥ يونيو ١٩٦٩. تبادل الجميع نظرات صامتة. يتوسط المجلس وحيد عزت زوج زينب، ضابط سابق بالجيش، والآن عضو مجلس الإدارة المنتـدب بشركـة البلاستيك. تقلب فى مناصب مختلفة حتى أصبح صاحب فيلا وسيارة مرسيدس. يجلس بجواره حازم حسام الدين النائب الأول لرئيس تحرير مجلة «الفجر الجديد»، يليه فى الجلسة ربيع سيف الدولة النائب الثانى لرئيس التحرير. كان حازم يساريًا متطرفًا وربيع عضوًا فى جماعة الإخوان المسلمين، عندما قامت الثورة آمنا بها، لكن..

– هل جاء الشراب لنتفرج عليه، ياوحيد بك؟

صاح سمير ميخائيل محرر صفحة السينما بالمجلة.

قال بريقع محرر صفحة الحوادث وهو يرفع كوبه عاليًا:

– سيداتى وسادتى.. إننا نبدأ مرحلة هامة من مراحل سكرنا العظيم.

فى رشاقة قامت الآنسة أميرة إبراهيم قائلة:

- فى البيت تقوم المرأة بخدمة الرجل، وفى الأماكن العامة يقوم الرجل بخدمة المرأة. ساعدينى يازينب هانم، ساعدينى يامدام سهام.

أميرة وسهام صديقتان تخرجتا فى كلية الآداب وعملتا محررتين فى باب ركن المرأة بالمجلة الذى ترأسه زينب عبد السلام.

- لا يامدام زينب سأشرب بيرة فقط.

قال ربيع سيف الدولة وهو يفك زرار قميصه الأعلى.

رد بريقع ساخرًا:

- الخمر حلال على مذهب أبى نواس الذى يقول :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء
وداونى بالتى كانت هى الداء

رد ربيع مغيظًا:

- أشرب البيرة كعلاج يازنديق.

قالت سهام صبرى فى رقة:

- لا تجعلوا أول الليلة نكدًا.

- نحن نشرب لكى ننسى.

رد حازم فى صوت خفيض، بينما قال سمير وهو يرفع كأسه:

- أنا أشرب إذن فأنا موجود.

ساد ضحك بين الجميع.

هل صحيح أن الناس تشرب كى تنسى؟ إذا كان هذا صحيحًا فلماذا أتذكر كل شىء حين أشرب؟ رشف فتحى رشفة وواصل حواره مع نفسه. بعد خمس وأربعين سنة من الكفاح والعمل يبدو كل شىء سرابًا، ووهمًا. لا أمل فى مستقبل ولا عزاء فى ماض. البلد خربة. ظلال النكسة تغطىّ كل مكـان. الساسـة أفلسوا. المثقفون صمتوا أو هاجروا. الكتّاب لاصوت يصدر عنهم سوى صوت الانتهازيين. الجيل القديم مغترب والجيل الجديـد مضيع. مـاذا بقى لك يـامصر؟ حتى الشـوارع مليئة بـالمطبـات ومياه المجارى. طوابير الجائعين أمام الجمعيات أطول من طوابير من يتدربون لحرب اليهود الذين يقفون على الشط الشرقى للقناة.

- القائد البطل سوف يطور حرب الاستنزاف إلى حرب حقيقية.

قال وحيد بك عزت وهو يسحب نفسًا هادئًا من سيجاره الطويل، بينما رد عليه ربيع:

- حرب استنزاف ضد من ياوحيد بك.؟ سنتان نسمع دويًا ولا يحسم أى شىء.

- المعسكر الاشتراكى سوف يساعدنا حتى النصر.. أضاف حازم فى ثقة.

- الحرب الحقيقية تبدأ من أرض مصر. لا أمل فى أى نصر إلا إذا اعتمدنا على أنفسنا، على أنفسنا فقط. أضاف فتحى.

- لم لا نقبل المبادرة الأمريكية لحل الأزمة؟

تساءل سمير ميخائيل فى هدوء، فأجاب ربيع فى حدة:

- روسيا، أمريكا. نلجأ دائمًا إلى عباد الله وننسى الله، نسينا كيف انتصرنا فى بدر وعين جالوت وحطين؟ خسارة وألف خسارة!

- نحن فى عصر الغاب، لا أمان لأى دولة صغيرة إذا لم تتحالف مع دولة كبرى. قال سمير.

تمتم وحيد عزت فى هدوء:

- يجب أن تثقوا فى القيادة.

- لقد وثقنا سبعة عشر عامًا.. وهذه هى النتيجة!! رد حازم.

قالت زينب فى رقة وهى تقرب الأطباق:

- تشربون، ولا تأكلون، يبدو أن طهيى لا يعجبكم.

ردت أميرة فى سرعة: سلمت يداك، الطعام يفتح النفس، لكنهم مدمنو سياسة.

قالت سهام: لا إنهم مدمنو كلام!

قال بريقع وهو يقذف فى فمه بصدر دجاجة:

- اشربوا ودعونا نأكل بنفس، ياعالم ياغاوين نكد!

قالت أميرة مبتسمة: همك فى بطنك.

- الأكل ضرورة؛ العقل السليم فى الجسم السليم.

قالت سهام: لو صحّت القاعدة لصدقت على الحيوان أكثر.

فقال سمير ضاحكاً: أليس الإنسان حيواناً؟

قالت أميرة وهي ترفع كأسها مرحة: فى صحة كل الحيوانات؟

* * *

فى الطريق إلى بيوتهم انحشروا فى سيارة فتحى عبد الكريم، بجواره أميرة وسهام، وفى الكرسى الخلفى حازم وربيع وبريقع وسمير.

قطع بريقع الصمت قائلا:

- لم لا تشترى سيارة أكبر يا سيادة رئيس التحرير؟

قالت سهام عابثة: مثلك يجب أن يجرّ عربة، لا أن يركب فيها.

ضحكوا من الأعماق، بينما تساءلت أميرة:

- تسجيل ألا يوجد عندك؟

- فقط أغانى عبد الوهاب وفيروز؟

قال حازم معابثاً:

- أنت تقدمى فى الفكر ومحافظ فى الفن.

تمتم فتحي: كلنا مرضى بالثنائية.

أكمل سمير: والكبت يا عزيزى.

بدأ صوت فيروز يملأ أرجاء العربة..

لا تسـألـونى مـا اسْمُـه حبيبى
أخشَى عليكم ضـوعـةَ الـطِّيـوب
والـلهِ لـو بُحـتُ بـأىِّ حـرفٍ
فلن أبـــــــوحَ باسْمِهِ حَبيبى

* * *

- بيتنا بجوار قصر البارون، لو سمحت لا تذهب من الشارع الرئيسى.

استنكر فكرة الشارع الرئيسى، من يمكن أن يراها فى الواحدة بعد منتصف الليل؟ أحس عطرها يملأ كل خـلايا أنفـه. نظراتهـا ناعسة. يمامة وديعـة تبحث عن المجهول. هـدأت العربـة، لم تهتم. توقفت، لم تبال. أطفـأ محرك السيـارة. اشتعلت نار الـرغبة. جمـع الزمان، واحتار الإنسان. إنه رئيسها فى العمل. ماذا يمكن أن تقول؟ أول مرة..!! ضوء الشارع خافت، لا حس ولا حركة.

- أ... أم... أميرة.

قبّلها فى خدها، فى جبهتها. حين وضع فمه على شفتيها تعلقت به كيد من خلال الموج مدت لغريق. رطوبة منعشة. شذى زهر يأتى من حديقة قريبة. أحس صدرها نحيفًا بدرجة لا تتناسب مع استواء قدّها. غابت عن الوجود بينها فتحى فى صراع بين الرغبة والرهبة، بين الأمن والخوف. سيارة مسرعة سلطت ضوءًا مبهراً. أحس أن الكون ضيق. أفاقت العصفورة.

- أوه، نسيت نفسى.

- ندخن سيجارة.

- نحن فى الشارع، أمى فى إنتظارى.

الآن تذكرت أننا فى شارع يا ابنة الملسوعة. هكذا أنت يا أميرة امرأة مثل كل النساء حين تنال رغبتها تمل. الآن تأخرت؟ استعاد هيبته الضائعة وكبرياءه النائم. دليلة قصت شعر شمشون. سالومى سلمت رأس يحيى إلى اليهود. إحذر يا فتحى عمرك ما استسلمت للرغبة. إصح يا سيادة رئيس التحرير، هذه موظفة مبتدئة، وتستطيع الآن أن تهدّ كل تاريخك. فلسفة فارغة. العجز يولد فى النفس أوهاماً شائكة.

* * *

مرّ على حجرة فاتن، ثم حجرة فاروق ولديه. أحكم إغلاق النوافذ، شد الغطاء، دخل حجرة نومه. نظيرة يا زوجتى العظيمة

اصحى.. نائمة بجلباب البيت، شعرها أشعث. فخذها اليمنى عارية. وجهها وصدرها على المرتبة. عجيزتها تل من تلال المقطم.

- نظيرة، نانا، اصحى يا حلوة. أريد أن أشرب شاياً يا عزيزتى.

اعتدلت متثاقلة ونامت على ظهرها، نظرت إليه كأنما لا تراه.

- يا رجل اتهدّ، وقل يا فتاح يا عليم.

- قومى يا امرأة، كونى أميرة.

تذكر أميرة. لكن أين نظيرة من أميرة؟

- هدّ حيلى الغسيل وشغل البيت، وأنت رجل تمشى على حل شعرك.

- طيب قومى مشطى شعرك وسوف أربط شعرى من اليوم.

- ألم أقل إنك رجل فاضى؟ سأترك لك الغرفة وأنام مع فاتن.

الدخان يتصاعد من سيجارته. تأمل شعرة بيضاء فى صدره بدت من الفانلة الصيفى. نور الأباجورة كان يوحى بالألم. صرصار يمشى على الدولاب. الدولاب ينوء بكراكيب الشتاء والصيف. سامحك الله يا نظيرة، حجرة النوم سوق روبابيكيا. تخيّل أمه تبتسم له فى شفقة:

- سوف يفتح الله عليك لأنى أموت راضية عنك.

تمنّى أن يعود للشارع؛ يشم هواءً نقيًّا. تذكر فجر ٩ يونيو

١٩٦٧. دخلنا المعركة واهمين أننا سندمر إسرائيل فى ساعات، ونرفع الأعلام العربية على الأرض المغتصبة. فى لحظات بدت الخيبة ناقعة.

- مستحيل أن يكون ما حدث هزيمة.

- ماذا إذن؟

- إهمال يصل إلى درجة الخيانة.

هكذا أجاب حازم فى حدة.

قال فى سخرية ربيع:

- البلد غرقت وهو يريد أن يتنحّى؟!

بينما رد فتحى:

- ما حدث نتيجة حتمية لكل ما نعيشه.

تمتم ربيع فى أسى: عليه العوض.

- لا تكن قدريًّا فى لحظة الجدّ.. لا أمل فى أىّ نصر إذا لم تتحقق الديمقراطية والعدالة!

انقطع التيار الكهربائى فجأة. الظلام يلفّ الحجرة. عقب سيجارة مشتعل يتأوه فى الطفاية. صرصار يغنى فرحاً فى الظلام.

* * *

(٢)

١ ÷ ١ = ١

لو كانت الحقيقة حُلمًا
لتمنيتُ ألا أفيق...

- المناضل السورى العظيم نعيم عدنان فى مكتبى؟! فرصة سعيدة. قال فتحى فى حماس.

- لامجاملة فى الفكر. لا مهادنة فى السياسة. لا تحالف مع عدو.

- ماذا تقصد؟

- كتبت ردًّا على مقالك الأخير «مستقبل الوحدة العربية فى ظل البترول» أرجو أن تكون ديمقراطيًّا وتسمح بنشره.

- أفهم من هذا أنك تختلف معى؟

- نعم يا أستاذ فتحى.

- ما رأيك فى هذه القضية يا أستاذ نعيم؟

تساءل حازم حسام الدين.

- رأيى أن البترول ثروة عظيمة ساقها الله لأمتنا العربية. بكل أسف لم يكن حتى الآن عامل وحدة، إنما دعامة فرقة واختلاف.

قالت مدام زينب فى هدوء: كيف؟

- قبل البترول كنا جميعًا أمة فقيرة تبحث عن الحرية والوحدة والاشتراكية، بعد البترول أصبحت الأمة معسكرين: الثروة والجهل فى ناحية، والعلم والفقر فى ناحية أخرى، ولا سبيل إلى لقاء.

تساءل ربيع مستنكرًا: أليست نظرتك متشائمة إلى حد ما؟.

- الحقيقة دائمًا مرة. رد نعيم فى صرامة.

قال فتحى عبد الكريم: الفروق بين البلاد العربية نسبية جدًا، وما تعانى منه دولة تعانى منه كل الدول. إذا أردنا وحدة حقيقية، فينبغى أن نبدأ مما نحن متّفقون فيه، حتى نستطيع أن نصل إلى ما نحن مختلفون فيه.

- وحدة الصف توجب وحدة الهدف.

صاح ربيع سيف الدولة كالملدوغ.

رد حازم حسام الدين بحدة: وحدة الهدف أولا.

شىء ما فى تركيبنا العضوى يبدو خطأ - حدّث فتحى نفسه - كل واحد منا لايعجبه إلا رأيه. كيف السبيل إلى الخلاص.. إلى الوحدة الحقيقية. ألف وخمسمائة سنة تنظر إلى جيلنا بازدراء. نملك كل أسباب النجاح والتقدم، لكن لاشىء يتحقق، شىء ما فاسد فى دورة حياتنا. شىء واحد فقط؟ قل أشياء، وأشياء. أكاد أشك أننا أحفاد من صنعوا هذه الحضارة الباهرة فى سالف الزمان.. إيه ياعرب؟.

* * *

- أخيرًا ظهر الصحفى العظيم شريف حمدى.

قال مرحبًا فتحى، بينما تمتم شريف:

- ميزان الكون انفلت يافتحى، زوجتى تعمل فى الكويت، وأنا أرعى الأطفال فى القاهرة.

- يوم تركب العربة بجوارها سوف تنسى.

- لايعرف الشوق إلا من يكابده.

- افتقدناك أمس. لا تحلو الجلسة بدونك.

- راحت علينا يا عم، أمثالنا لا أمل فيهم.

- الدهن فى العتاق ياشريف. آه يجوزُ أنّك عجزت، لكن أنا، أنا شباب على طول!!

- هكذا أنت دائمًا، تجعلنى أنسى ماجئت من أجله.

كانا صديقى طفولة. إنهما نموذجان مختلفان. فى الشخصية والفكر وأسلوب الحياة، لكن صداقة قوية تربط بينهما.

- هناك احتفال بتخريج دفعة جديدة من منظمة الشباب بالمنصورة، يحضرها نائب الرئيس ومسئول الدعوة والفكر فى الاتحاد الاشتراكى.

- مالك والشباب يا جِدُّو شريف؟

- اسمح لى أن أغطّى أخبار الاحتفال.

- لا أفهم.

- أسبوع أجازة، وبدل سفر، حتى أزور الأهـل وأقضى بعض المصالح.

- لن تتغيّر أبدًا ياشريف.

- رجل واقعى أنا، لست مثاليًّا مثلك.

ضحك ملء فيه: أنا مثالى ياشريف؟

اضحك كما شئت يافتحى لكنى سأسافر وأكتب موضوع إنشاء وأنا جالس على السرير بجوار أمى. شباب إيه، دعوة وفكر إيـه ونحن فى نكسة عامة، ياعم فتحى.؟

* * *

عندما وضع قدمه على رصيف الشارع أحس شخصًا يطارده.

- أميرة.. مصادفة سعيدة!

النظارة السوداء تغطّى عينيها، لم يستطع أن يرى أثر المصادفة فيها.

- إلى أين؟

- لم؟

- مجرد سؤال. لا أريد أن أتعبك، المواصـلات زحمة. إن كـان

سيرك فى طريقى سوف أصحبك، هذا.. وإلا...؟

- بصراحة لا شىء على وجه التحديد (مازال مصرًا على الكذب). الليلة موعد طبع المجلة، لابد أن أراجعها قبل التنفيذ.

- تنادى بالديمقراطية وتفعل ما يثبت أنك مستبد.

- لا أفهم.

- دع كل واحد يعمل شغله.

- عندك حق.

أزعج خاطره أنه استجاب لطلبها، وأنها قالت شيئًا ينفّذه بالفعل، لكن المصادفة أربكته!!

فى كافتيريا المطار جلسا.

- تعبتك اليوم؟

- ثقيلة على نفسى رؤية المطار.

كان يتأمل وجهها النحيل فى صمت، بينما يده تعبث بكوب البيرة. توقف عند فمها الرشيق فى كبرياء. تأمل، الشفة السفلى أكثر امتلاءً.

- حدثنى عن نفسك إذا كان الكلام لا يضايقك.

- الماضى، لا أطيق الحديث عنه.

- متزوج؟

أحس أنها تقترب من بؤرة ساخنة.

- بلا شك.

- تحبّ زوجتك.؟

- بيننا عِشرة وخمسة عشر عامًا وطفلان.

- الرجل بعد أن يتزوّج امرأة يسلم الحب للمأذون ليحفظه فى المحكمة الشرعية.

- فى البداية كان الكفاح السياسى والنجاح فى العمل هما كل حياتى، فقط كنت أريد بيتاً.

- والآن؟

- أرجو أن تحترمى صمتى.

- لا تريد أن نكون أصدقاء؟

- ماتقصدين؟

- خشيت أن تسىء فهمى، أحسست أمس أنك فى حاجة إلىّ، استسلمت دون وعى.

أشعل سيجارة، تأمل دخانها، رأى من الحائط الزجاجى فوجًا من الخارجين عبر بوابة المطار.

- أتقبل أن نكون أصدقاء؟

- شرف أرجو نواله.

- بصراحة.. يا فتحي

- نعم.

- خرجت منذُ شهرين من قصة حب فاشلة، كفرت بالحب.

- على كل، الصداقة أخلد من الحب.

* * *

(٣)

١ × صفر = صفر

إذا عجزت الكلمة
عن الدلالة
فهى أرخص
من الحبر الذى كُتبتْ به!

جلس فتحى عبد الكريم متجهماً خلف مكتبه. عن اليمين ربيع سيف الدولة، وعن اليسار حازم حسام الدين. أسـرة تحريـر مجلة «الفجر الجديد» تجمعت فى الحجرة. على وجوه الحاضرين علامات دهشة واستنكار. فتحى نادراً ما بدا متجهماً بهذا الشكل.. منذ عمل فى المجلة من عشرين سنة. تدرّج فى كل المناصب وجرّب الكتابة فى جميع الموضوعات. المجلة ليست مقرّ عمل، إنما داره، كعبته، جنتـه، سر وجوده. الموظفون والعمال كلهم إخوة له. عميقة كأغوار المحيط نفسـه، لا تقدر أن تكتشف بسهـولة مـا بداخله. أمـا اليـوم فقـد انكسرت القاعدة.

- جمعتكم اليـوم لنتناقش فى سيـاسـة المجلة، الأستـاذ خـالـد الشناوى عضو مجلس الإدارة المنتدب، يرى أن حس المعارضة صارخ فى المجلة، حتى ركن المرأة يا مدام زينب، يناقش قضايا قـد تثير رجال الدين. تبادل نظرات صامتة معها.

صرخت سهام صبرى كالملدوغة: أصبح الدين سوطاً لتهديد أى فكر مستنير، هذه...

قاطعها بريقع فى هدوء: مدام سهام أنت موظفة جديدة، لم يفتح باب النقاش.

صاحت أميرة بحدة: كل ما يهمك هو الشكل، الرسميات.

- بالتى هى أحسن... تمتم ربيع.

أضاف حازم: لن يملى علينا أحد شروطه.

قال شريف حمدى ساخراً: ذيل الكلب ما ينعدل...

دقّ فتحى على المكتب بيده اليسرى فى عصبية وقال:

- يبدو أننى أخطأت فى عقد هذا الاجتماع، كان يمكن أن أكتفى بالمسئولين عن كل باب. أريد الديمقراطية وتمارسون الفوضى.

قاطعته أميرة: لسنا فى روضة أطفال يا أستاذ.

نطقت «يا أستاذ» بسخرية. قال لنفسه اشرب يا أستاذ فتحى أول ثمرة للصداقة الجديدة. كأنما صُب عليه إناء ماء بارد. توقف للحظة. أحس حازم بحرج الموقف، فقال بهدوء:

- منذ قامت الثورة عملت سنة جديدة، وضعت أهل الثقة فى صراع مع أهل الخبرة.

ردّ ربيع فى عصبية: ليست هذه سنة وإنما بدعة.

- المهم - واصل حازم: الخلاف بين الأستاذ خالد والأستاذ فتحى على أشدّه. ما رأيكم؟

- ما دخل هذا العضو المنتدب فى الصحافة والفكر؟ تساءلت سهام.

قال سمير ميخائيل فى قلق: احذروا، أعضاء مكتبه، الحائط له آذان.

قال بريقع ساخراً: أيتها الصحافة كم من الجرائم ترتكب باسمك !!

- نحن المسئولون عن المجلة، إذا لم تسر الأمور برأينا فتعالوا
- تعلقت الأبصار بشريف حمدى - تعالوا نقدم استقالة جماعية.

قال ربيع مستنكراً: قوانين الطوارئ معلنة، وقد نتهم بالخيانة العظمى.

- أو تحال على المعاش وتملأ المجلة عن طريق إدارة القوى العاملة - واصلت أميرة - وكله عند العرب صابون.!

كادت عينا أميرة تقعان على عينى فتحى، سرعان ما تحولتا إلى صورة لعبد الله النديم خلفه. أى علاقة تربط بين فتحى والنديم؟ إيه يا زمن !!

أطفأ سيجارته ونظر إليهم فتحى مبتسماً: لقد ازددت إصراراً على رأى قلته للأستاذ خالد.. لن نتنازل عن سياستنا.

- لا فائدة.

تمتم هامساً شريف.. ولم يستمع له أحد.

* * *

- كادت تحدث ثورة اليوم بالمجلة يا وحيد.

تمتمت زينب وهى جالسة تأكل مع زوجها الذى يقطع صدر ديك رومى بالسكين:

- ثورة ٢٣ يوليو آخر الثورات يا زيزى.

- الأستاذ خالد الشناوى صديقك..

- إنه أقرب رجال الصف الثانى إلى الصحافة والأدب.

- تصور، إنه يعترض على باب ركن المرأة الذى أديره؟

- نتيجة طبيعية لوجود بعض الكاتبات الجدد.

- لولا أميرة وسهام لكان من الأفضل غلق هذا الباب.

- كيف؟

- عندهما قدرة عجيبة على تفجير موضوعات حية وريبورتاجات ساخنة.

- ليس المهم هو الكلام.

قام متجهاً إلى دورة المياه. روب أزرق لامع يغطى ظهره العريض. أمسكت زيزى بسكين وتفاحة حمراء، وتمتمت فى صمت:

- تغيرت كثيراً يا وحيد.

* * *

- أين ستقضى الصيف يا خالد بك؟

تحسس خالد الشناوى شاربه العريض:

- المدام تفضل رأس البر والأولاد إسكندرية.

- وسعادتك مع من؟

- مع الأسف يا أستاذ بريقع.

ابتسم خالد بينما تعمد بريقع الضحك المتواصل، ثم أردف وهو يرفع سبابته بحذاء فمه:

- طول عمرك لمّاح يا سعادة البك.. أى والله، هذا رأيى منذ شرفتنا فى المجلة.

- من خمس سنين يا بريقع؟

- هذا عمر المجلة الحقيقى، أى والله.

- لم لا تقول هذا للأستاذ فتحى؟

- ذكّرتنى.. ما سر الخلاف بينك وبينه؟

- أوامر عليا يا أستاذ بريقع.

- كيف؟

- مجلتنا معروفة بخطها اليسارى الواضح، كان المطلوب تشجيعها والعلاقات طيبة مع روسيا.

- والآن؟

- يبدو أن هناك مفاوضات سرية مع أمريكا للقيام بدور فى الصراع العربى الإسرائيلى.

- ما رأى سعادتك؟

- اسمع يا أستاذ بريقع، أنا رجل مجرّب، حاربت وعملت فى أكثر من مجال.

- تستحق كل خير يا افندم.

- يا بريقع، تفكر كثيراً، تخطىء كثيراً؛ تعاقب. لا تفكر، لا تخطىء؛ تترقى.

* * *

(٤)

٣ × ١٠ = ٣٠

١٥ × ٢ = ٣٠

٥ × ٦ = ٣٠

الحياة سيرك كبير
لا تكاد تعرف فيه
المهرّج من المتفرّج.

- أهلا يا أميرة أول مرة تزورينى بعد الزواج.

- شقتك بسيطة وأنيقة ياسوسو.

- طلعت روحنا حتى حصلنا عليها.

- كم؟

- سنتان وثلاثة آلاف جنيه.

- تحيا العزوبية.

كانتا تجلسان فى أنتريه متواضع. منظر طبيعى ملون خلف سهام بقميصها الشفاف. ابتسمت أميرة.

- ياخبيثة فيم تفكرين؟

- فى الذى فكرت فيه.

- عقبى لك يا أميرة.

قدمت لها كوبًا من العصير، ثم واصلت:

- راضية عن عملك بالمجلة؟

- لا أحب العمل الروتينى. تذكرت؟

- ماذا؟

- أول أمس كنت أبحث عن عمل فى شركة مصر للطيران.

- غير معقول!

- العجيب ياروحى أن الأستاذ فتحى أوصلنى إلى المطار.

- كان يعرف شيئًا.

- هل أنا مجنونة؟

- من ناحية مجنونة، مجنونة.

- أجنن أنا. أليس كذلك؟

- لو عرف لخرب بيتك.

- قلبك أبيض.

* * *

فى مكتب ربيع سيف الدولة يجلس بريقع وسمير وسهام.

- تشربون شيئًا.؟ قال ربيع. .

- نحن فى موعد الغذاء وتقول نشرب ياشيخ ربيع؟

قال ضاحكًا بريقع. ثم أردفت سهام:

- فيك كل العبر، لكن المجلة بدونك لا طعم لها.

- اسألينى عنه يامدام، عشرة عشرين سنة.

قال سمير.. بينما أكمل ربيع:

- طيب قل، قل له فى وجهه.

- الأستاذ بريقع من الجنس الخامس.

- الخامس ؟

- نعم، الذى يضرّ بحُسْن نية مع سبق الإصرار.

أراد سمير أن يغير مجرى الحديث:

- الأستاذ شريف غاطس هذه الأيام.

- كان الله فى عونه إنه أم وأب لثلاثة أطفال.

قالت سهام فى براءة، بينما كوّر بريقع يده ودق المكتب:

- أقول لكم الخبر اليقين؟ لقد ذهب إلى أهله ليشترى فدان طين وجاموستين.

- ونقول عليه درويش؟

- مجرد ستار، حتى لايحسده أحد أو يستلف منه.

- إن بعض الظن إثم.

- وبعض الظن حقيقة.

* * *

- منذ مدة لم تزرنى فى البيت ياحازم.

- أحس بملل يافتحى.

- يبدو أن الهواء نفسه صار ملوثًا. كل شىء يتداعى.

أثار انتباه حازم غلبة اللون الأحمر على ديكور البيت. طقم الصالون، الستائر، صورة لسور الصين، تمثال نحاسى لنفرتيتى.

- حرب الاستنزاف لاتنتهى ولا تحقق النصر؟

- مشاكلنا أكبر من قدراتنا ياحازم.

- أكبر مصيبة هى سوء التخطيط.

- مائة مليون عربى ويهزمون أمام مليونين؟

- إذا كان الإخوة أعداء فماذا تنتظر منهم؟

- الحاضر مظلم. والأمل فى المستقبل.

- متى ننتصر.. متى نتحرر.. متى نتحد.. متى؟

- المستقبل فى صف كل صحيح فى الفكر والسلوك.

صمت الصديقان كأنما عجزا عن الكلام.. صوت الطفلين يأتى من الداخل وزعيق الأم:

- أنتما يا مفعوصان طلعتما روحى. والله لأشبعنكما ضربًا.. هات المسطرة يافاروق.

أحس فتحى بخجل، كان يتمنّى زوجة حكيمة، لكنه فى الحقيقة يرعى ثلاثة أطفال، فنظيرة لاتزيد عن طفليها إلا إصبعًا!

قال فتحى حتى يشغل صديقه عن حركة البيت:

- سمعت أن ملك الأردن يقوم بزيـارات سريـة للتفاوض مـع أمريكا.

- ما رأيك نأخذ عهـدًا على ألا نتكلم فى السيـاسة أسبـوعًا، أسبوعًا واحدًا على الأقل؟

- إذا كان ممكنًا أن تجد فى فرن قالب ثلج.

* * *

- نام الأولاد يانظيرة؟

- مصرّان على مشاهدة فيلم أجنبى، مثقفان مثل أبيهما.

- لسانك دائمًا ينقط عسلا.

- ألا تنوى شراء غسالة؟

- اليد قصيرة يانظيرة.

- لم لا تكف عن التدخين، وتشتريها بالتقسيط.

تأمل حجرة النوم فى ملل. هذه المرأة غاوية نكدًا. ماهذا حديثًا يناسب قبيل النوم. إيه ياامرأة حتى أنت؟.

تركته وحده وراحت فى سبات عميق، كأنما النوم طاقية تضعها تحت الوسادة. النـوم، النوم فى هـذه الأيام السـوداء، صعب أو مستحيل. شعور بالسأم يملأ دماغه. عاش العمر عَدوًا.. والحياة كفاحًا. لا يبدو أنه حقق شيئًا. لا طاقـة أمل. لا فـائدة فى أى شيء. ماذا حدث يافتحى طول عمرك رمز للصلابة والنضـال. كبرت وكان ما كان. إحساس بالعجز يسيطر على مشاعره. الثورة أخرجت الانجليز من الشباك وأدخلت اليهود من الباب. الخراب امتـد إلى كل مكـان. المعايـير انهدت.. اخطف واجـر.. الشعار السائد. حتى البيت لا راحة، لابسمة، الابتسامة عزت فى عصر الضباب. تراءت له صورة أمه مبتسمة فى طرحة بيضاء تربت على كتفه فى حنان:

– لا تحزن يافتحى.. سوف يحقق الله كل آمالك.. فقـد متُّ وأنا راضية عنك.

أفاق على صوت يؤذن للفجر:

حـىّ عـلى الفـلاح

حـىّ عـلى الفـلاح

* * *

فى ليلة ٣ يوليو ١٩٦٩ تجمعوا أمام مبنى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى، بعد أن استمعوا إلى كلمة لمسئول الدعوة والفكر.

- كان الجو خانقًا رغم التكييف.

قال ربيع. بينما صاح بريقع عابثًا:

- ذبْتُ من الحر. كوب بيرة ساقع يا أولاد الحلال، ومن قدم شيئًا بيديه وجده عند الله. هنيئًا لك يافاعل الخير والإحسان.

- إلى كازينو قصر النيل.

قال فتحى دون تفكير، بينما صاحوا فرحين:

- النيل.. النيل.

قالت أميرة بعد أن انتقلوا إلى الرصيف المقابل:

- يعنى سنتنيّل؟

- تنيلنا من زمان والحمد لله.

رد سمير ميخائيل ضاحكًا.

تجمعوا حول مائدة قريبة من النيل. قال ربيع وهو يضع كأسه بعصبية على المائدة:

- الأستاذ حازم عنده حق فى مقاطعة مثل هذه الندوات.

- إذا مات الفعل كثر الكلام.

قالها فتحى، وشرد بعيداً فى ماء النيل، يذوب فى أمواجه السوداء صخب المدينة ومجاهل الليل وتداخل الأضواء. صاحت أميرة:

- التائه يوحّد الله.

- تذكرت شاعر النيل يابريقع، قصدى ياأميرة.

- لا، الأستاذ فتحى راح، راح بعيدا، بعيدا.

قال بريقع ساخرًا.

- ما حكاية شاعر النيل هذه يافتحى؟

تساءلت أميرة فى رقة.

- لا تقربوا النيل إنْ لم تعملوا
عملاً، فماؤه العذب لم يخلق لكسلان

قال سمير: كان ينبغى أن تكون أديبًا يا أستاذ فتحى.

- كل من يتذوق الأدب أديب يا سمير. ردت مدام سهام.

قال بريقع: ألا تنسون هومكم لحظة؟ ألا تعرفون معنى الضحك ياعالم؟ قل لنا نكتة فنية ياسمير.

- كثرة الضحك تميت القلب، يابريقع.

رد ربيع فى اختصار.

تحسس بريقع قلبه عابثاً: يا قلبى، صاح أنت أم نائم. آه يا ربيع قلبى مات. الله يرحمك يا قلبى. لم لم تقل لى من زمن؟

ردت أميرة: قلبى عليك ياغلبان؟

- تتزوجينى يا أميرة؟

- إذا أتيت بشهادة تثبت أنك...؟

ساد ضحك، بينما قالت سهام: لقد تأخرت.

* * *

(٥)

$\frac{٩٩٩٨٧}{١٠٠٠٠٠}$ د١

كلِ النجوم..
لا تُغنى عن القمر.

اقتـرب فجـر أول أكتـوبـر ١٩٦٩ عيـد ميـلاده الخـامس والأربعين. آثر أن يقضى ليلة الميلاد المشئوم مع نفسه، مع نفسه فقط. مـافائـدة أن يتجمع النـاس حـولـك لكن داخلك فـراغ، وإحساسك عبثى بالكون؟ لا يـدرى لم اختار ميـدان رمسيس ليقضى لحظات شروده، وتأمله؟ ملّ منظر كورنيش النيل، ظلام الأهرام، مجالس الأصدقاء، الأندية، البارات، حتى المكتب. نحن فى عصر السأم، السأم، سأم بالحق وبالباطل من كل شىء، وفى كل شىء. دار حول السور الحديدى لمحطة القطار. هذا هو البـاب الحديدى. بابك ياقاهرة من حديد. على أى شىء يدل هذا الباب الحديدى، الذى لايوقف خـارجًا ولا يمنـع داخلا؟ حتى الأبـواب الحديدية بطل مفعولها يابطل. لكن من البطل؟. لسنا فى عصـر الأبطال، تغيّر معنى البطولة. البطل الحقيقى فى هذه الأيـام من يملك القدرة على مواصلة السير.. سليم العقـل، صحيح النفس. هناك شىء ما جعل فتحى عبد الكريم يشك، يشك فى كل شىء. هذا أنت يافتحى؟. لكن من أنت حتى تثق فى نفسك كل هذه الثقة؟ لا، ألف لا ولا. أنت لا هنا، ولا هناك. أنت لاشىء. من قال هذا؟

ولدت أثناء موت سيد درويش ومحمود مختار وسعد زغلول ومصطفى المنفلوطى. فى نفس الفترة كـان هناك: دستـور سنة

١٩٢٣ يرفرف على البلاد، والأحـزاب عاليـة الصوت، والبـرلمان ومجلس الشيوخ، الصحف والمجلات.. كانت الحياة خلية نحل رغم وجود الإنجليز.

سار حتى وصل إلى البركة المقدسة بين قدمى تمثال رمسيس الثانى. تأمل صورته فى الماء الساكن، متوسط الطول أقرب إلى الامتلاء. مثل طمى النيل لون وجهه، شعر أسود متموج، أنف أميل إلى الاتساع. الشكل بصفة عامة مقبـول، لكن المضمون لاشىء يافتحى؟

من تحت الأرض خرجت من أسرة ريفية فقيرة، ولدتنى وسبعة من الأطفال، حفظت القرآن، عشت الريف بلياليه السوداء وأيامه المقفرة. أمى لم تكن تعرف شيئًا عما يدور خارج البيت، لكنهـا كانت مصطبة يستريح عليها كل متعب. ما قالت يومًا لا لأحد. دائمًا مبتسمة حتى فى لحظة الحزن، متفائلة حتى فى ساعة الضيق. كيف خلق الله أمهات ذلك الزمان؟ ومن أى طينة عجنهن؟ الأب فلاح جاور فى الأزهر وحفظ نحو ابن مالك وفقة الإمام مالك. لكنه عاد ولم يكمل، ليكونْ رب أسـرة فى الخامســة عشر من عمره. مات أبـوه وصار أبًـا لعشرة من الإخـوةَ فى هذه السن الخضراء. لم يكن يملك شيئًا ذا قيمة فى هذه الحياة، لكن الكل كان يعمل له حسابًا حتى العمدة، كلمة الحاج عبد الكريم لا تنزل الأرض. كما الفرق بين الفضة والألمونيوم، يكون الفرق بين زمنك

يا أبي و هذا الزمان الذى نعيشه.

فى الطريق إلى الجامعة والحياة، عرفت السياسة والثقافة. كنت طالبًا فى كلية الحقوق، ومع ذلك واظبت على محاضـرات كلية الآداب فى الفلسفة واللغة العربية واللغة الإنجليزية، تنقلت فى كل الأحزاب. كنت أبحث دائمًا عن وجه مصر العربيـة.. مصر الحرية.. فلم أجده.. حتى مع الجماعات الدينية.

رفضت العمـل بالمحـاماة فى أى مكتب. كـان مثلى الأعـلى الدكتور حسين هيكل، مـوسوعـة فى السياسـة والفكر والأدب والصحافة. تمنيت يومًا أن أكون مثله. عشرون عاما أعمـل فى السياسة والصحافة، لا أدرى هل نتقدم أم نتأخر؟ طردنا الإنجليز وأدخلنا اليهود. أممت الصحافة والسياسة، تحت شعار لا صوت أعلى من صوت المعركة والدعوة الشمولية ليكون الكل فى واحد، ضاع الواحد وتاه الكل. إيه يا مصر، إيه يا عرب؟ فجر الكون يطل من جديد، ولا أرى فجرًا للحرية، أو للوحدة.

نسيت كل مطالبى الإنسانية والشخصية. آلة تسير من أجل أن تحفر المستقبل.. المستقبل الملتزم. ضاع العمر هباء. لا جدوى، لا أمل.

وقفت بجوار تمثال رمسيس أبثه شكوى حبيسة منذ أربعة آلاف سنـة، ملاحـظة شكلية جعلتنى أحس بـانقباض وتشـاؤم. تصور أنا العريض الممتلىء، الطويل المستقيم لا أكاد أصل إلى

ركبة رمسيس. هل أنتهى عصر العمالقة؟ إيه يارمسيس ماذا حدث للأحفاد بعد الأجداد؟

حين زرت أمى فى العام الماضى بكت، لم تصدق أنى أنا، اتهمتنى بالعقوق. بالقرب منها فى القرية خمسة رجال، أبناؤها مثلى. لكنها دائمًا تبحث عنى، تنتظرنى. قالت ودمع العين يسبق كلامها:

- آخر طلب أريده منك، أن تشترى لى الكفن، حتى الليفة والصابونة، وزجاجة عطر.

- أطال الله عمرك يا أمى.

- لا أمل لى فى الحياة سوى هذا الكفن. اشتقت إلى أبيك.

- رحمه الله.

- رحمنا الله جميعًا ياولدى.

هذه العجوز الساذجة تحيّرنى دائمًا معها. ليتنى أستطيع أنا الآخر أن أسافر. لكن الطريق مازال طويلا، مُرًّا فيما يبدو يا أمى!

* * *

- أستاذ فتحى، ما فلسفتك فى الحياة؟

- ماتقصدين يا أميرة؟

- ليس ادعاء. بكل تواضع، أنت مثل أعلى كنت أريد مشاهدته عن قرب.

- صدقينى يا أميرة، الحقيقة المرعبة التى تملأ حياتى الآن هى الوهم.

- الوهم يا أستاذ؟

- كل شىء فى هذه الحياة وهم كبير، لكن آمالنا الخرساء تجعلنا نستعذب الألم، من أجل وهم أكبر.

- لا أفهمك.

- خمسة وعشرون عامًا فى الكفاح السياسى والصحفى، ولم يتحقق أى شىء.

- لا أصدقك.

- حتى الزوجة، والأبناء، لا عزاء فيهم.

- أشربت شيئًا؟

- المر.

- مادمت فى لحظة صدق مع نفسك، اسمح لى.

- بم؟

- لاتصدق أنك دون جوان وأنك أغريتنى أو أغويتنى.

- ...

- أنا التى صممت على أن ألفت نظرك إلىّ. كل مـا يمكن أن تظن أنه صدفة، كان قدرًا مقصودًا.

- لم أكن أظن أنى أستحق كل هذا الاهتمام؟

- رأيتك يومًا تنزل من عربتك الزرقاء، وتزهو فى بدلتك، وتسير فى كبرياء إلى مكتبك، قلت...

- ماذا؟

- والله لأجعلنّه يأتى.

- حتى هذا ياأميرة، سلبتنى من أى بطولة فيه؟

- لاتحزن فالأمر ليس مخيفًا إلى هذا الحد.

- ما...؟

- رجل عظيم أنت، لكن..

- نعم؟

- حياتك من الداخل خربة.

- ألست أميرة؟

- نعم

- أنا عبدك يا مولاتى.

حتى فى الحبّ نصير.. كم أفزعتنى فكرة العبودية حين قلتها فلتة لأميرة. أميرة يا أميرة، أتركينى لهمومى فأنا يائس حزين. نظرت فى السماء الداكنة كانت النجوم تتلألأ، لكن القمر غائب. حتى قمر السماء يغيب. عجيب، عجيب!!

أيها البصير الذى فى السماء، أيها الخبير الذى على الأرض، أيها الحكيم الذى فى الفكر، أيها الهادى الذى يملأ القلب، أعطيكم عمرى.. أؤدى كل الفروض والنوافل، كل الطاعة والحكمة، كل الرضا والحب، إن عرفت الطريق، الطريق.

الأمل منك وإليك يافتحى. تماسك، شد حيلك. تباشير يوم مولدى تظهر. أجر ساقى المجهدة إلى فجر يوم جديد.

* * *

- لم عدت مبكرًا ياروحى؟

قالت نظيرة وهى تتمطى بعد نوم طويل. لم أرد عليها، كنت أبحث عن حقيقة واحدة. ارتميت على السرير، لم أستطع خلع ملابسى. نمت ، نمت بينما كان فاروق وفاتن يستعدان للذهاب إلى المدرسة.

* * *

(٦)

٥ × ٦ - ؟ + ٢ = ؟!

إذا كانت الحقيقة مُرّة
فأمَرٌّ منها
أن نسكت عليها!

– منذ عيد ميلادك لم نرك؟

– ابحث ياحازم.

– عم؟

– عن الحقيقة.

اشعلا سيجارتين، وصمتا. لو كان الفكر مستريحًا لعدّها حازم نكتة من صديقه وأستاذه فتحى عبد الكريم، لكن كليهما صمت. لم يعد يتحرك فى الحجرة سوى الدخان. الدخان يتلوى، حتى يصير هباءً.

دخلت مدام زينب وأميرة مندفعتين، الغضب أخضر على وجهيهما. جلستا على أقرب كرسيين.

– اسمع يا فتحى بك إما أن أمارس صلاحياتى أو أستقيل.

قالت مدام زينب وهى ترفع ورقة فى يدها اليمنى مهددة، فقاطعتها أميرة:

– تنشرون هذه المقالة أو أستقيل؟

الإرهاق شلّ من فتحى كل جوارحه، دهش مما يرى. لم يستطع أن يتكلم، فأخذ حازم زمام المبادرة:

- اهدءا حتى نستطيع المناقشة.

لم تنس أميرة أنها موظفة مستجدة، أخذت تمسح حبات عرق متناثرة على الجبهة. لمحت علبة سجائر فتحى أمامه، أخذت سيجارة، أشعلتها بالولاعة، نظرت إليها زينب نظرة مريبة.

- أميرة كتبت مقالاً يهدّ المجلة لو نشر!

ردت أميرة فى تحد: لم يامدام؟

- تصور الجرأة يا أستاذ. أميرة تريد نشر مقال عن «المرأة والشيطان»!!

- وما الغريب فى هذا؟. تمتم فتحى.

- اسمع يا سيدى.

شدت أميرة المقال بقوة:

- إذا كنتم ستسمعون فصاحبة المقال أحق بقراءته.

قال فتحى دون تفكير: معك حق.

فى شماتة قالت زينب: لكن هناك ذوق فى التعامل يا أستاذ فتحى.

لعنت أميرة فى سرها كل نساء العالم. أحست بازدراء شديد لأن الله خلقها امرأة. أصرت على أن تواجه التحدى:

- «أجمعت كل الرسالات السماوية والأساطير الشعبية على أن (الشيطان) حقيقة مؤكدة فى الحياة، ولم يكن اكتشاف الشيطان شرًّا على البشرية، بل فاتحة الطريق إلى الهداية والخير، فوظيفة الشيطان إثبات قدرة الإنسان أو عجزه عن الغواية والفتنة، وامتحان مشيئته بين المباح والمحرّم. لكن أهم مايحتاج إلى تصحيح فى مفاهيمنا المعاصرة هو نفى فكرة أن المرأة أكثر طواعية للشيطان من الرجل، وأنه إذا التقى رجل وامرأة فالشيطان ثالثهما، والمرأة مطية الشيطان إلى الرجل، فى حين أن الدراسات الحديثة فى علم النفس والاجتماع تثبت أن قدرات المرأة أقدر على التحمل والمواجهة من الرجل...

قاطعت زينب فى عصبية: ألا يكفى هذا؟

ردت أميرة محتدة: يكفى على ماذا؟

- على أن المقال غير صالح للنشر.

- لاتكونى الخصم والحكم.

- أرجوك يامدام زينب، أرجوك يا آنسة أميرة، لا أقبل فى مكتبى هذا الأسلوب.

قال حازم فى هدوء: لو سمحت يا أستاذ فتحى أجّل المناقشة إلى أن أقرأ المقال.

- أنا الذى سيقرأه. كفى تنازلات، كل يوم تنازلات، تنازلات

حتى كاد الإنسان يتنازل عن رأسه.

- يبدو أن الغضب يُعدى.

استأذن حازم ، ثم زينب.. كادت أميرة تهم بالوقوف فطلب منها البقاء. حين خلت الحجرة نظر إليها فى صمت، بينما نظرات غيظ مكظوم فى عينيها:

- يموت المعلم ولا يتعلم.!!

- ماتقصدين؟

- لو لم أكن أعرفك - نظر إليها فى مودة وقال فى سره ولم لا تقولين لو لم أكن أحبك - لقلت إنك غبى؟

انتفض كالملدوغ: أميرة؟

- أعطيتهم فرصة.

* * *

- أرجوك يا أستاذ ربيع - واصلت مدام زينب - الوحيد العاقل فى هذا البيمارستان أنت، الأستاذ فتحى صديقك حرّ فى عواطفه الشخصية، لكن.. العمل عمل.

- يا مدام.. إن بعض الظن إثم.

- لم يبق إلا التجرؤ على المقدسات الدينية. الشيوعية تفوح فى فكر أميرة وسلوكها.

- كيف؟

- ألست معنا فى المجلة؟

- إذا كان من حقى التفكير من خلال منظور معيّن، فمن واجبى أن أسمح لمنظور الآخرين؟

- ونفتح الباب للفكر المستورد... للكفر؟

- لا أحب المتاجرة بالشعارات.

- إذا أصبح الشيخ ربيع تقدميًّا إلى هذه الدرجة، فقل على الدنيا السلام.

قذفت الجملة وخرجت. قابلها بريقع، حيّاها فلم ترد، أخذ يعبث بسلسلة مفاتيح فى يده:

- سأذهب اليوم إلى الموسكى واشترى بريال بخور.

- تنهّد الدنيا ولا يتغير مزاجك.

- يبدو أن حرب الاستنفاذ، أوه، أقصد الاستنزاف انتقلت من قناة السويس إلى كل مكان فى البلد.

- لك مزاج تحسد عليه.

فى نوفمبر ١٩٦٥ قُبض على اليمين واليسار، اعتقلوا المؤمنين بالله والكافرين به - مضى ربيع يحدث نفسه - فى زحمة الاعتقالات كان بينهم مسيحى:

- معقـول ياحضـرة الصول، معقـول أن يكون مسيحى فى الإخوان المسلمين؟

- يبدو أنك شيوعى جئت هنا خطأ، من الأفضل نقلك إلى عنبر الشيوعيين.

- لا ياسعادة البيه الصول، هنا يسهل إثبات براءتى!!

هكذا صاح سمير ميخائيل حين التقى به أول مرة.

فى سجن الاستئناف تجد حشـرات مثـل: البق، القمـل، البـراغيث، الصراصـير، الفئران، السحـالى.. بدرجـة تعجـز كـل المبيدات.

كان الانتقال إلى ليمان لا أعرف له مكانًا على الخريطة، فى عربة ذات صندوق مغلق والعيون معصوبة. رمونا من العـربة مثل بهائم السوق. حين دخلنا كانت كلبـة السجن متعسرة فى الولادة، تهوهو، تستغيث. الكرابيج تنهال علينا. العيون معصوبة، وصوت يصيح:

- يا أولاد الكلب تدعون أنكم أولياء الله، يا حمير ادعوا حتى تلد سيدتكم الكلبة، يا بهائم. (طاخ... طيخ.. أوه... آه.. آااه..)

بيننا رجل عجوز، لم يكن يقدر على تقطيع الصخور. جـاءه عسكرى أسود ممتلىء:

- ياعم الحاج يا أمير، ما الذى أدخلك وسط هؤلاء الخوارج؟

- تبرعت بجنيه لبناء مسجد.

- بناء مسجد أم شراء أسلحة ياحاج؟

نزل عليه ضربًا بكل مايملك من قوة. جريت نحو العجوز أريد تخليصه، شدنى من ياقة الأفرول جندى طويل. نظر إلى فى غيظ بارد. الدم يغلى فى عروقى، صحت:

- سوف ينتقم الله من الخونة. يسقط الخونة.

علا صراخ كل الموجودين: يسقط الخونة.

يومها لم نتناول طعامًا ولا ماءً أربعًا وعشرين ساعة. قضينا اليوم واقفين، مغمضى العيون، بعد كل دقيقة كان يسقط واحد ساكتًا، لا ينطق.! احتجبت الرؤية. لم نعد نعرف الفرق بين الليل والنهار. وتأتى الأستاذة زينب لتهددنا من جديد، وتلوح بعودة الإرهاب الفكرى. لا يا زينب وألف لا.

* * *

- عفريتة القيلولة لن تنزل اليوم. ماهذا الهناء؟

تلفت إلى أمى بعين مرهقة بين اليقظة والنوم، لم أجد ما أقوله، سكت بينما استطردت:

- خيرًا. تانت فوفو ستحضر الليلة وتريد أن تراك.

- لن أرى أحدًا.

زعقت بعصبية لامبرّر لها. نظرت إلىّ فى دهشة:

- مالك يامرمر؟

- لا شيء. متعبة.

شدت الباب وراءها وانسحبت، صوت أبى المريض جاء مجلجلا من الأنتريه:

- كوب ماء يا أمينة.

مع كل ركن فى هذه الحجرة اللعينة، لى ذكريات. ثلاث وعشرون سنة لا أدرى كيف مرّت؟ كل شيء يهون فى حياتى - الأب المريض إبراهيم مصطفى، الأم البلهاء أمينة، الأخ المفلوت صفوت، الأخت المهاجرة كاميليا، حتى ضيق أفق مدام زينب - إلا أنت أيها النذل عاطف الكَفراوى، ظننت تحت البدلة الصفراء قلبًا أبيض. تحت النجوم بحر ظلام. رغبة صبيّة مراهقة شدتنى إليه. الحب يجعلنا نتنازل عن أشياء وبعض أشياء. سلّمت له نفسى كاملة. كان نذلا. رمانى من حياته كما ترمى الليمونة بعد عصرها، سألنى الطبيب وهو يجهز أدواته:

- لم تريدين إسقاطه؟

- لا أريد له أبًا نذلاً.!

الأمر الذى يحيرنى هل أعترف لفتحى بهذا الموقف أم لا؟ تراه يغفر؟ يظل محتفظًا باحترامى، محافظًا على كبريائى؟ فى العلاقات العاطفية يتبارى المحبون فى إخفاء الصفحات السوداء من حياتهم. كل يريد ادعاء أنه فى برج زجاجى كان، ولم يمسسه إنس أو جان. نحن صديقان. سأناقش معه الموقف. لن نكون زوجين، ولا حتى حبيبين، مستحيل. أردت عاطف زوجًا فرفض، لا هرب، اليوم يريدنى فتحى زوجة، لن أكون. خلقتنى للعذاب لم يارب؟

* * *

(٧)

$$\frac{١}{١٤} \div \frac{٣}{٢٥} = \frac{٢٥}{٤٢}$$

$$\frac{١}{٤} \times \frac{١}{٦} = \frac{١}{٢٤}$$

س ÷ ص = ؟

إذا كان
أصحاب العقول أتعب الناس
وأصحاب القلوب أشقى الناس
فمن تُرى يكون السعيدُ فى هذه الحياة؟

- أرجو أن يعجبك هذا التحقيق الصحفى.

- بصراحة أول مرة يا بريقع تعمل شيئًا له قيمة.

- صحيح يا أستاذ فتحى؟

- شكوى الجمهور من سوء التعامـل مع الجمعيـات التعاونيـة صحيح، أتوقع أن يكون لتحقيقك صدى كبير.

- لا أظن ذلك.

دخل شريف حمدى متجهمًا. حين رآه بريقع قال ساخراً وهو يهم بالانصراف:

- إذا حضر الأغنياء خرج الفقراء.

- قلّ نشاطك بشكل ملحوظ يا شريف.

- مشاغل يا أخى.

- بدأ الزملاء يتحدثون.

- الذين بيوتهم من زجاج...

- لا دخان بلا نار.

- تعرف أنى أب وأم.

- وأنك موظف فى المجلة.

- كل واحد أدرى بصالحه.

- بداية الخراب أن يبحث كل واحد عن مصلحته الخاصة.

- كفى شعارات يا فتحى.

- يؤسفنى ما وصلت إليه، كنت أظن أن حل مشاكلك المادية سوف يريحك.

- كل مهيّءٌ لما خلق له.

- لا فائدة من الحوار معك. قل ما تريد؟

سكت برهة وأصلح نظارته ذات الزجاج البنى الداكن.. كان شريف شابًا وسيمًا، لكنه أصيب فى المعتقل بأزمة نفسية، فقد قبضوا عليه فى شهر العسل بعد أن قضى ليلة واحدة مع عروسه.

أشفق الحارس المتمرس عليه حين وجده منهارًا، كان يعطيه كل يوم عشر زلطات ويطلب تكسيرها إلى ذرات. طارت ذرة. دخلت عينه اليسرى، مسحها بيده الملوثة. خرج من المعتقل شبه فاقد لإحدى عينيه. خرج إلى الحياة كافرًا بكل قيمة. مثل دودة القز تشرنق حول نفسه. أحضرت له زوجته نوال عقدًا للعمل بالخارج، لكن الأمن اعترض على سفره.. قال بأسى:

- لا يرحمون ولا يتركون رحمة الله تنزل.

أيقظه فتحى من شروده:

- ما تريد يا رجل؟

- إجازة.

- أصبحت تأخذ إجازة من الإجازة.

- يعنى موافق.

- بشرط.

- ما هو؟

- أن تترك مفتاح شقتك ليومين.

- أسبوع كامل يا حبيبى.

- ضع فى الثلاجة شيئًا يؤكل.

- ويشرب أيضًا. اسمع يا عزيزى، للصديق على صديقه ثلاث: هدية ومغالطة وشهادة زور.

- هذه الخدمة من أى؟

- فكّر أنت!

* * *

قال سمير لربيع:

- لم أكن أتصور أن صديقى اللدود سيكون أنت.

- لم؟

- لأنك متدين إلى درجة التزمت.

- من يؤمن بقيمة فى الحياة يؤمن بكل القيم.

- معقول؟

- منذ رأيتك فى المعتقل عرفت أنك مخلص.

- مثلك يعنى.

- الذى آخذه عليك.

- خيرًا؟

- أنك فى الخامسة والثلاثين ولم تتزوج.

- الزواج فى شرعنا ليس باليسر الذى عندكم؟

- لا أعتقد ذلك.

- لكنه الواقع.

دخل بريقع لاهثا..

- تصورا، الأستاذ خالد اعترض على التحقيق الذى عملته.

- ما الذى يحدث فى المجلة؟ تمتم سمير.

- جزء مما يحدث فى الواقع يا عزيزى. رد ربيع.

* * *

فى حجرة الاستقبال بمنزل ربيع سيف الدولة. تجمع فتحى وحازم وأميرة. تأمل حازم أثاث الغرفة، ثبت نظره على آية قرآنية ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾، بينما كان فتحى يتأمل عوامل الوراثة بين ربيع وصورة والده الشيخ، أما أميرة فقد دهشت لعدم وجود فازة زهور فى الحجرة.

وضع ربيع أمامهم مصحفًا كريمًا وقال فى هدوء:

- نقسم على الصدق والإخلاص.

- ما الحكاية يا ربيع؟ تمتم فتحى.

تأملت أميرة فتحى فإذا شعيرات بيضاء بدأت تشتعل فى فوديْه.

- منذ شهر لم يهدأ لى فكر.

- خيرًا إن شاء الله؟ رد حازم حسام الدين.

- تأملت حال الأمة العربية، وحربنا الطويلة مع اليهود، وفساد الحياة، بالإضافة إلى كثرة ما يقع عندنا فى المجلة من تجاوزات.

- ما الجديد فى هذا؟ تساءلت أميرة إبراهيم.

- لو سمحت يا آنسة أميرة لا تقاطعيه. تمتم حازم.

– وبعد؟ أضاف فتحى وهو يشعل سيجارة.

– ليس هناك أمل، لا فائدة من أى كلام؛ الطوفان قادم، لابد من عمل سرى منظم.

– كيف؟

– لنا فى سيرة الرسول عليه السلام أسوة حسنة، كل الرسالات بدأت سرية، وحين كسبت الأنصار أعلنت الجهاد المقدس.

– لا أفهم. قالت أميرة.

– رسولنا الكريم مثلا بدأ دعوته بالصديق أبى بكر وزوجته السيدة خديجة وابن عمه الصبى على بن أبى طالب.

– ماذا تقصد يا شيخ ربيع؟ تساءل فتحى.

– لقد اخترتكم لنكون اللجنة التأسيسية لجماعة الجهاد والوحدة.

– معك حق.!!

– صاحت أميرة بفرحة طفل، ثم أكملت:

– الأمل الحقيقى فى عمل منظم، نحن اليوم أربعة، بعد أسبوع نكون أربعين. بعد سنة أربعمائة...

قاطعها حازم: وبعد يومين قد نعود إلى المعتقل. تتكلّمين بحماس لأنك لم تجرّبى مأساة الاعتقال.

قال ربيع: كنت أظن هذا يجعلك أكثر إيمانا بما أقول. أليس كذلك يا فتحى؟

انتبه فتحى وقال فى هدوء:

- صحيح ما تقول، لكنك فاجأتنا.

- أن نفاجأ بالعمل والجهاد خير من أن نفاجأ بنكسة أخرى.!

- إيه يا مصر، إيه يا عرب. تمتم فتحى.

- حضرت مؤتمرًا صحفيًا فى العام الماضى عقد فى باريس - واصل ربيع - كنت أخجل من كونى عربيًا، ومصريًا، استغفر الله العظيم بل ومن كونى مسلمًا. العرب مائة مليون، والمسلمون أكثر من مائتى مليون، ومع ذلك فنحن أسوأ خلق الله حالاً فى الدنيا كلها.

- معك حق. أجاب فتحى.

- ما العمل؟ تساءل حازم.

- الخطوة بداية الميل. قالت أميرة.

- اقترح الاتفاق من اليوم على الجهاد المقدس - واصل ربيع - وأن يكون فتحى أمير الجماعة.

رد حازم فى تحدٍ: نريد صيغة عامة تؤلّف بين جميع الفلسفات السياسية يا شيخ ربيع.

- أوافق.

- أرجو أن تكون هذه الجلسة بداية التفكير فى المشروع، ونلتقى بعد أسبوع. قال فتحى.

- بشرط أن يكون الاجتماع القادم عندى.

- ما ترى يا حازم.

* * *

على شط النيل ناحية جاردن سيتى كان حازم يسير وحده فى الظلام. إيه يا نيل يا أبانا العظيم. كل شىء يتغير إلا أنت. لكنى عاتب عليك أيها الأب الحنون. لى رجاء عندك. آمل أن يغيض ماؤك فى سنوات الظلم، حتى يحرك الجوع الناس، حتى يستيقظوا، حتى يعملوا. يسقط الخونة. يسقط الظلم. كاد يصيح لولا أن أيقظه ضوء سيارة مسرعة تسير نحو الجنوب.

أربعون سنة مرت يا نيل، لكن الليل ما يزال طويلا. لم أستطع حتى الآن أن أحقق شيئًا لمصر. لم لا أبدأ بنفسى؟ نعم لم لا تتزوج يا حازم؟ تسقط العزوبية. لكن من تتزوج؟ النساء أكثر من الهمّ على القلب. أصوم وأفطر على بصلة؟ لابد أن تكون امرأة. امرأة إيه؟ لا، فتاة بكر، مثقفة، حلوة، واعية، مثل... مثل... مثل من؟ آه مثل أميرة. لم لم أفكر فى هذه الفتاة العظيمة من قبل؟ لكن هل ستوافق؟ ولم لا؟ عندى قلب، وشقة، وسبعون

جنيها فى الشهر. يعنى قلب، ومركز، ووظيفة أميرى، يا أميرة.

خطر فى ذهنه أن يتصل بها تليفونيًا. كانت الساعة الواحدة بعد منتصف ليلة ٥ نوفمبر ١٩٦٩. استنكر الفكرة. عندما تكون فى روما افعل ما يفعله الرومان، لكننا فى مصر.

رأى فندق شبرد يطل من بعيد. اشتاق إلى كأس، أخذ يعدو ناحيته وهو يصيح بفرحة:

اليوم خمر، وغداً حب يا أميرة.

* * *

(٨)

- أ × - ب = أب

في البدء يكون
الحب!

- مدام زينب أين أميرة؟ سأل حازم.

أجابت ملونة صوتها ووجهها فى تهكم:

- اسأل فتحى بك.

- رئيسها المباشر أنت.

- يظهر أن غير المباشر أفضل من المباشر فى هذه الأيام.

- مدام سهام أرجو أن تسألى عن أميرة فى البيت.

- غير موجودة يا حازم.

- أين؟

- من اللياقة واللباقة ألا يحرج الإنسان صديقه.

- ربيع ألا تعرف أخباراً عن فتحى وأميرة؟

- إلحاحك فى السؤال وأنت صديق يثير الشك. ماذا تركت للآخرين؟.

- ولكن...

- ماذا؟

- أتكتم السر؟

- ما حدث يا حازم؟

- أريد أن أتزوج أميرة.

- لا أكاد أصدق.

- شيء طبيعي.

- إذن إنتظر حتى تأتي.

- أذهب اليوم إلى بيتها؟

- عريان سنة ويتعجل الخياط يوماً.

* * *

في شقة شريف حمدي استيقظ فتحي في تكاسل، قبّل أميرة في رقة وضمها إليه: صباح الخير يا حبي.

- الساعة الآن؟

- يا فتاح يا عليم.

- أحس بجوع شديد.

جلسا على مائدة الإفطار مثل عروسين في شهر العسل، تحررًا إلا من ملابس خفيفة تناسب النوم أكثر.

- ليلة سعيدة كانت.

- أغرْيتني حتى أغوْيتني يامّكار.

- لا أدرى ما الذى يجذبنى إليك؟

- أظنك وجدت الجواب الليلة.

- كانت ليلتى الحقيقية. كأن لم أكن متزوجاً من قبل؟

- ومن ادّعى غير ذلك لا سمح الله.

- كيف؟

قالت وهو يطعمها قطعة بيض:

- تحاول أن تريح نفسك فقط - نظر إليها مشدوهاً - تمارس اللذة كأنك تؤدّى عملا روتينياً.

عجيب أن تعلم فتاة رجلا متزوجاً أصول الحب، وطرق اللعب. اللذة الحقيقية تسعد اثنين فى وقت واحد.

أحس أن صالة الشقة طويلة، فأخذ يتأملها فى صمت.

- أنت عظيمة.

- لا تنافق.. اعرفْ جيدًا أنى مجنونة.

- العاقلة جننتنى والمجنونة سوف تعقلنى.

- قلبك أبيض يا روحى.

- لم أعد قادرًا على الاستغناء عنك.

- تعرف أن هذا الحديث يغيظنى. سنظل أصدقاء، أصدقاء فقط لا غير. أتفهمنى؟

من كثرة حبّها له كانت حريصة على أن تظل صورته محترمة بين الناس، وألا تحرمه من بيت بناه منذ خمس عشـرة سنة، فى مجتمع لا يرحم. المستقبل بدأ يبتسم لفتحى. تناثرت إشاعات أنه سوف يختار وزيراً للثقافة. معالى الوزير - بلا شك - فى حاجة إلى زوجة عصرية، لكنه فى حاجة أكثر إلى احترام الناس الشكلى له، حتى لو احترق قلبه بنار الفحم. دنيا.. يا حبيبى!

- لم تقل رأيك فى مشروع الأستاذ ربيع.

- الحرب مع اليهود تستعمل مبرراً لمفاسد كثيرة. إذا لم نبدأ من الآن فسوف يأتى الطوفان.

- هذا يعنى أنك غير موافق على حرب الاستنزاف.

- تقصدين حالة اللاّسلم واللاّحرب؟

- سمّها ما شئت.

- بالطبع لا.

- لم تعلن هذا الرأى؟

- ليس سهلا.

- منافق.

- يا مجنونة.

- أنت فى السياسة مثل الحب.. تقول شيئاً وتفعل نقيضه.

انتفض واقفاً فسألته: إلى أين؟

- اغتسل.

* * *

- قل لى يا بريقع باعتبارك حبيب الكل.

- أيوه يا خالد بك.

- أين فتحى عبد الكريم؟

لم يكمل السؤال عن أميرة حتى لا يكشف عن قصده.

دخل إسماعيل عامل البوفيه، وضع القهوة فى سكون، ثم أردف:

- الأستاذ فتحى وصل.

أمسك خالد سماعة التليفون، طلب من السكرتيرة أن تـوصله بالأستاذ فتحى.

- حمداً لله على سلامتك.

- ....

- شغلنا عليك.

- ....

- أول مرة تغيب عن المجلة.

- ....

- إذا وجدت الفرصة سانحة نشرب القهوة سويًّا.

* * *

تغيّب فتحى وأميرة يومين. اتفقا على ألا يعودا سويًّا. عاد اليوم فتحى إلى كعبته، تجمّع كل الأصدقاء والموظفين والعمال حوله.

قال إسماعيل: المجلة من غيرك مظلمة.

- حفظك الله يا عم إسماعيل. كأنى غبت شهرين.

- هذا ما أحسسنا به فعلا.

تمتم حازم بينما أردف ربيع وهو ينظر إليه باستنكار:

- صحيح يا حازم، أول مرة تحس بوحشة ناحية الأستاذ فتحى؟!

* * *

- ما رأيك يا أستاذ فتحى؟

- فيم؟

- أنت أخي وصديقي ومعلمي.

- ادخل في الموضوع.

- أميرة.

- مالها؟

- أريد أن أتزوجها.

نزل الخبر عليه كالصاعقة، سكت وتأمل حازم في دهشة. خاطر شيطاني، تعجب كيف لم يفكر فيه من قبل؟ أربّيها يا حازم كي تخطفها؟ ودّ لو يمسك بخناقه. تذكر أن بينهما عشرة ورفقة كفاح. المشاركة في كل شيء جائزة إلا الحب. قابيل قتل هابيل من أجل امرأة. ترى من سيقتل الآخر فينا؟ اتفقنا على كل شيء في الحياة يا حازم.. حتى المحبوبة!

أفاق من شطحاته مصطنعاً لهجة الجدّ واللّامبالاة:

- فتاة ممتازة.

- هذا ما توقعت سماعه منك.

- لكن ما شأني أنا؟

- قل نعم أو... لا.

سكت وأخفى ارتباكه بإشعال سيجارة، لم يجد الولّاعة على الرغم

من أنه أشعل بها أكثر من سيجارة. قال حازم وهو يشعل له بولاعته:

سكتَّ يا صديقى، والسكوت فى هذه الحالة علامة الرضا.

* * *

- أعجبتك رأس البر يا أميرة؟

قالت الأم، بينما أميرة تمشط شعرها بعناية:

- قضيت مع سهام وزوجها يومين من أجمل أيام عمرى.

- متى يستريح قلبى وتسافرين مع زوجك؟

- تعبت منى يا أمى؟!

- أريد أن أطمئن عليك نحن فى أيام سوداء.

حتى أنت يا أمى تعرفين أن الأيام سوداء، يبدو أن هناك بكتيريا مسممة فى الجو. إذا كانت أمى تعنى ما تقول فعلى الدنيا السلام. بلا شك يموت أبى العجوز بالسكتة القلبية، وتعول أمى حتى يصل صوتها إلى المطار، لو عرفا أنى أحب رجلا متزوجاً، له طفلان. خيبتك ناقعة يا أميرة!

* * *

قال وحيد عزت لزوجته وهما يتناولان الشاى:

- أقطع ذراعى إذا لم تكونى مشغولة بأمر ما.

- أريد عمل تحقيق، أو لفت نظر لأميرة إبراهيم.

- لا تكونى غشيمة فى التعامل.

- كيف؟

- تظاهرى بالود والتعاطف وسنجعل الضربة تأتيها من فوق.. من خالد الشناوى.

- يا ابن الذين...!

- عيب يازوزو، زوجك يعرف أصول المناورات.

* * *

- أميرة.

- نعم.

يجلسان فى كازينو على النيل بالقرب من المعادى.

- أنا... أنا معجب بك.

- يا روحى. تكتم كل هذا فى قلبك؟

- أول مرة أقول هذا لامرأة..

- من خيبتك يا حازم، عندك أربعون سنة وتذكرت نفسك الآن.

– تغذّى التعليم على الصبا، وحرق المعتقل الشباب، ودّمر الكفاح وأكل العيش جزءًا من عمر الرجولة.

– مازلت شاباً بالفعل لكنى أمزح.

– أفهم، أنك موافقة؟

– أرجوك لا تفهم شيئاً لم أقله. لسانى طويل وأقول ما أؤمن به.

– ....

– لن أتزوج إلا بعد أن أفعل شيئاً لمصر.

– لا تعارض بين الأمرْين، هذا مصيرى ومصيرك.

– إفهمنى، ولا تزعل أرجوك... لست الرجل الذى أريده، فلنظل أصدقاء.

– أميرة.

– ثق أنه سيأتى اليوم الذى أحتاج فيه إلى صداقتك.

* * *

– امرأة اسمها أميرة طلبتك اليوم فى التليفون.

– ليست امرأة يا نانا.

قالت وهى تضع أمامه طبقاً من البرتقال وسكيناً:

– لم تقل لى من هذه التى تدافع عنها.

- زميلة جديدة فى المجلة.

- لابد أنها مائعة من بنات اليوم.

- من قال هذا؟

- التى تعمل إما بائرة أو مقطوعة من شجرة.

- إذن لم أدخلت ابنتك المدرسة؟

- لمجرد التعليم.

- قالت أميرة شيئاً.

- لم تبدو مهتمًا بها هكذا؟

- كل نقاش معك يصل إلى طريق مسدود.

- يكفى أنّ طرقك، كلها مفتوحة!

* * *

(٩)

ماء × أرض = أمل

أقسم بالوالد والولد
وبكل خير فى البلد
أن نُعيد بناء الحياة
بالكلمة.

فى بيت حازم حيث بدت آثار العزوبية واضحة قال:

- أصبح لجماعتنا الآن أنصار فى الاسكندرية والمنصورة والزقازيق والجيزة والقاهرة.

- مندوبو الاتصال يجب أن يزيد عددهم. أكمل فتحى.

- أنا على استعداد. صاحت أميرة.

- أنت فتاة، مستحيل أن نعرضك لمثل هذه المخاطر. رد فتحى فى قلق.

- الظلم حين يحرق لايفرّق.

- الوحيد الذى لم يدخل التجمع من الشلة هو بريقع.. لم لانستعين به؟

تساءل سمير ميخائيل. فأجاب ربيع:

- قلبه طيب، لكن الفولة لاتبل فى فمه.

- سوف نعقد الاجتماع القادم فى المنصورة، مارأيكم لو استعنا بشريف؟. تساءل ربيع.

- حاول.

أصبح الأمل حقيقية. لا شيء مستحيل فى الحياة. اتفق زعماء

التنظيم على أن ينادوا بإلغاء قانون الطوارئ، وعودة الديمقراطية، والدعوة إلى الحرب الشعبية. الكثرة لاتغنى عن الشجاعة - مضى ربيع يحدث نفسه - نحارب عدوًا ورث كل لؤم التاريخ. يجب أن نحاربه جميعًا، جميعًا، مصريين، وعربًا. المنشور الأخير المطلوب توزيعه بعنوان «الوحدة القومية سلاح النصر فى حرب عنصرية». متى يصبح الشعار حقيقة؟ لاشىء مستحيل، ياعرب!

* * *

- لا أكون خالد الشناوى، إذا كان هذا حال المجلة.

قالت زينب: ماذا تقصد؟

- شىء ماغير عادى فى وجوه كل الموظفين، حتى اسماعيل الفراش.

- كان الله فى عونك ياخالد بك - أكمل وحيد عزت فى صالون منزله - الصحافة مهنة البحث عن المتاعب.

- ليست المشكلة فى المجلة.

- فيم؟

- فى حركة الذين أتعامل معهم.

- كل موظفيك والحمد لله خريجو معتقلات، من جميع الاتجاهات.

- لكن الثورة وحّدت بين الجميع.

- أتعتقد أن النظام الشمولى يسمح بديمقراطية حقيقية؟

- حتى أميرة - واصلت زينب - شيوعية؟

- الرئيس يفكر لنا جميعًا، إنه أملنا الوحيد فى الخلاص والحرية. تمتم خالد.

قال وحيد عزت وهو يكمل كأسه فى عصبية:

- يبدو أن الخمر أيضًا صارت مغشوشة، لاتسكر؟

* * *

- نفسى مفتوحة لكل شىء يا أميرة، أحس بأنى شاب.

- يا عجوز!؟

- شهادتك ونحن فى شقة شريف، تنفى ذلك. أميرة أتمنى أن أرقص.

- زوربا المصرى حضرتك؟

- كل شىء نمارسه خطأ فى حياتنا. أتمنى أن أعيش حتى أرى البسمة على وجه كل عربى.

- يطول عمرك ياعم فتحى.

- فى الحب محرومون.. فى الأكل فقراء.. فى الحرية مسلوبون.. متى تحل كل هذه العقد؟

- عندما تشرق شمس الحرية.

- تلعننا الأجيال القادمة إذا لم نفعل شيئًا.

- زينب تمارس معى الآن لعبة القط والفأر.

- لم لا تنتقلين إلى أى مكتب آخر؟

- لن أتهاون، من يسلم مرة يستسلم لكل شىء.

- يا عنيدة.!

- سأفقع لها المرارة.

تأمل منظر الأهرام ساعة الأصيل. إيه يامصر، سبعة آلاف سنة تنظر إلينا فى عتاب عبر هذه الصحراء الممتدة. مصر أم الدنيا، على قدر ما أخذت من ميزات التاريخ والجغرافيا بقدر ما نالت من العذاب والظلم.!

- تسرح وأنا معك؟

- ....

- فيم تفكر؟

- فى حبيبتى.

- هى من.. قل بسرعة؟ أغار، لا أتحمل.

- حبيبتى أم الدنيا.

- كيف حال فاروق وفاتن؟

- أظنهما بخير. لم السؤال؟

- لاتنسى أنك أب.

- أتعرفين أن من عادتى النسيان.

- لو ولدت لك طفلا، فسأربيه حتى يكون وزيرًا. لا، بل...

- ياليت.

- نجوم السماء أقرب.

تألم حين شاهد عوامل التعرية تنخر فى وجه أبى الهول وقاعدته. فى القرية كان لهم جار يكرى حماره كل يوم دون أن يعلفه أو ينظفه، بعد أسبوعين مات.

- تحب الصحراء يافتحى؟

- تذكرنى بالحرية.

- ذكرتنى. أفضل ألا تطلبنى بعد ذلك فى مكتبك.

- ألست موظفة؟

- نلتزم بالرسميات كى لايشك أحد.

- أمرك.

- تستطيع أن تلحق بى؟

أسلمت ساقيها لشمس الأصيل. تجرى.. ويجرى. تجرى.. ويجرى. تجرى....

- اجر يا عجوز. لن أتوقف إلا عند الفيوم.

- لو وصلت إلى السودان!

تعثرت قدمها. وقعت. ارتمى بجوارها. غابت الشمس. ظهر القمر من بعيد. الهواء يعبث بشعرها.

* * *

فى كازينو الشمس بشارع عماد الدين، دخل حازم مترددًا. الضوء شاحب فى البار. بحث عن مائدة خالية. وقف رجل منتفضًا، خلع نظارته. ابتسم صائحًا:

- أستاذ حازم حسام الدين. أهلا.

- من.. آه، نعيم عدنان، فرصة سعيدة.

- أكون سعيدًا لو شاركتنى - صمت برهة - إذا لم تكن مرتبطًا بموعد. ابتسم، ثم صاح: كأس ويسكى دوبل ياعبد الله.

- فى صحتك يا أستاذ نعيم.

- فى صحة القومية العربية.

المناضل السورى نعيم عدنان من دعاة الوحدة العربية، عندما حدث الانفصال فرّ وأقام بمصر، ينتظر يوم الوحدة المأمول.

- أول مرة أراك هنا.

- الملل يدفعنا أحيانًا إلى ارتكاب أىّ حماقة.

- مجلة الفجر الجديد، كيف تسير؟

- متعثرة فى ظل قانون الطوارئ، وبوليسية العضو المنتدب.

- خسارة أن يصبح هذا حال «الفجر الجديد».

- الأمل الحقيقى فى العمل.

- وفتحى عبد الكريم؟

- يقود المركب وسط أمواج عاتية.

- هذا الرجل ينتظره مستقبل عظيم.

- فى المجتمع، أم فى المعتقل؟

- معك حق. فى الشرق يصعب أن تتنبأ بمستقبل إنسان.

- كدت أيأس. المستقبل مظلم. الجوع والنكسة جعلا الناس تكفر بكل شىء.

- كيف؟

- منذ دخل اليهود المنطقة حلّت عليها اللعنة.

تأمل حازم السكارى، والحيارى. ترى لم يسكر الناس؟ عالم غريب. عجيب. لم خلق الله هذه الدنيا؟ مهزلة ساخرة، أخرجت

بشكل مأسوى.

- سكرت؟

- هل رأى الوطن سكارى مثلنا؟

- تحب يازعيم؟ قل، حدّثنا؟

- حب الوطن، لايتحمل ضرّة.

- سأوصى عليك عم عبد الله.

- هذا العجوز المسطول؟

- سره باتع.

* * *

حين ضمّهما الفراش، أحس أنه عاجز. أعطاها سيجارة آملا أن يحس بالدفء ليلة ٢٠ ديسمبر ١٩٦٩.

- اسمك يا عصفورة؟

طردت الدخان وقالت فى ضعف: سوزى.

كلكن سوزى وسلوى، نانا وتاتا، وفوفو وكوكو. أينْ عيوشة ونفيسة، وست الدار وأم الخير، يا بنات الليل؟

- اسمك الحقيقى؟

- سوزى زغلول، حفيدة الزعيم العظيم.

سعد زغلول لم ينجب. كانت زوجه صفية عاقرًا، لذلك أسموها «أم المصريين». السياسة أصبحت موضة، ليس غريبًا أن يتاجر بها كل الناس حتى البغايا.

عاد إلى المومس الصغيرة. أحس أن الحوار ألذّ من الفعل.

- قولى كل ما عندك.. افتحى صدرك.

- لقد خلعت السنتيان.

ضحك ملء فيه، قال وهو يعبث بشعرها:

- أحدثك بالكناية يا عزيزتى.

- ولم لاتحدثنى بالفلوس أولاً. الثرثارون أمثالك يضيعون الليلة فى كلام. يدارون العجز أم الفلس؟

سحب ورقة بخمسة جنيهات وضعها بين ثدييها.

- أريد أن نصبح أصدقاء يا سوزى.

تحجرت دمعة فى عين مرهقة تعكر بياضها.

- من بورسعيد هاجرت أسرتى. نعيش مع عشرات الأسر فى مدرسة، كل أسرة فى فصل...

ارتعشت دون مناسبة. انكمشت داخل البطانية. نظر من فتحات الشيش فإذا الظلام شديد فى الخارج.

- استشهد خطيبى فى سيناء. دمرت المدافع بيتنا. مازالت أمى واثنان من أخوتى تحت الانقاض. أبى شُلّ من كثرة ما رأى.. وبعد أن فقد مصدر رزقه.

- ماذا كان؟

- تاجر تحف لركاب البواخر، كان يلعب بالفلوس والآن تلعب به الدنيا. يحتاج كل شهر إلى عشرين جنيه دواء. وزارة الشئون تعطينا سبعة جنيهات وخمسة وستين قرشًا وثمانية مليمات.

أغمض عينيه. سرح بعيدًا. عمره أربعون سنة ومع ذلك عاصر الحرب العالمية الثانية، وحرب فلسطين ١٩٤٨، وحرب ١٩٥٦، وحرب اليمن ١٩٦٢، وحرب ١٩٦٧ والبقية تأتى. جيل ملعون وأيام سوداء.

- كاد الفجر يطلع، لابد أن أعود قبل أن تستيقظ المدرسة.

- ......

- أستاذ حازم لن تفعل شيئا؟

- لا أقدر!



(١٠)

٣ × ٤ ÷ ٦ × أ - ب × د = ؟

الطريق إلى بحار
المرجانِ
محفوفٌ بالمخاطر والأحزان

فى منزل حازم تجمع مندوبو التنظيم فى القاهرة والجيزة. لم تأت أميرة بعد. أخذوا يدردشون فى إنتظارها.

- تصوروا.. اليوم ٢٣ ديسمبر ١٩٦٩، عيد النصر؟!

- دمر اليهود اليوم بعض المنشآت الصناعية فى السويس.

- كيف نبدأ الحرب ولم نستعد لها؟

- يوم الثأر من كل الأعداء سيأتى قريباً.

- بدأت أشغل على أميرة. تمتم ربيع.

- اتصل بها تليفونياً يا حازم. قال فتحى.

- لا يوجد تليفون قريب.

صمتوا، بينما صوت يأتى من راديو قريب:

يا بيوت السويس يا بيوت مدينتى
استشهد تحتك وتعيشى إنت
يا بيوت السويس

طرق متواصل.. مزعج. شد الانتباه. أثار القلق. أخذ فتحى حقيبة المنشورات ودخل المطبخ. فتح ربيع النافذة المغلقة. فتح سمير ميخائيل الباب. دخلت أميرة ترتعش. ارتمت على أول كرسى. ذهبت

فى غيبوبة. التفوا حولها.

- برفان أو كولونيا يا حازم. صاح فتحى

- بكل أسف.

- بصلة حمراء.

رش بعض الماء البارد على وجهها. أحس فتحى بانقباض شديد.

- ماذا حدث؟ لم أرها يوماً هكذا.

- اصبر حتى تفيق. قال ربيع.

- اهدءوا. الحمد لله.

- أميرة.

- تعرضت لمحاولة خطف ومطاردة.

- الأوغاد.

- كيف؟

- عند خروجى من البيت شاهدت سيارة سوداء. بها ثلاثة رجال طلبوا أن يوصلونى، رفضت.

- وبعد؟

- نزلت من التاكسى وهم ورائى... بُعد البيت عن الشارع الرئيسى ساعدهم على مضايقتى.

- لم تطلبى النجدة؟

- عندما أحسوا بالحركة والاستغاثة هربوا.

- الأوغاد.

ضحكت ضحكة ساخرة.

- تصوّر يا فتحى، احتميت فى دكان حلاقة رجالى!

- لم تعرفى واحداً منهم؟

سأل حازم فى غيظ.!! ثم قال:

- بدأت الآن أفهم.. ليست هذه مصادفة، لقد تعرضت بالأمس لمحاولة مضايقة وضرب على محطة المترو.

- أخبارنا وصلت.

- يجب أن نتصرف بحذر.

* * *

دخلت زينب الحجرة. حيّت أميرة بابتسامة متكلفة، بينما بالغت فى تحية سهام وجلست بجوارها:

- من أجلك جئت يا حبيبتى.

- خطوة عزيزة يا مدام زينب.

- ستة شهور ولم نر بشائر! ولى العهد يا سوسو؟

- اتفقنا على أن يكون شهر العسل سنتين.

- المكان الحقيقى للمرأة يا سوسو هو البيت، والتى لا تتزوج يا عينى عليها.

- كل شيء قسمة ونصيب؟

- ذكرتنى بالذى مضى، تصورى... وأنا صغيرة رفضت عشرين خطيباً قبل أن أتزوج.

- يا سلام!

- البنت سمعة يا حبيبتى. التى تتعلم وتعمل ولا تتزوج، أكيد هناك سبب؟!

انتفضت أميرة واقفة. خرجت وقد تركت الباب ينغلق بقوة قائلة: غجر!

* * *

فى حجرة مكتبه تحدث خالد الشناوى قائلا:

- أستاذ فتحى، أردت أن تكون شاهدًا على ما أريد قوله لسمير وبريقع.

- تفضل. قال فتحى باختصار.

- أريد أن يتوسعا فى الأخبار والمقالات الاجتماعية والرياضية

والفنية. الحياة تقوم على التكامل، وهذا يجعل «الفجر الجديد» مجلة أوسع إنتشاراً.

- لكنك اعترضت علي تحقيق عملته عن الجمعيات التعاونية. رد بريقع.

- كما تعترض على بعض الأفلام السياسية التى أقدمها. أضاف سمير.

- يا جماعة الحياة صعبة، والظروف التى نمرّ بها قاسية.

- أخيراً اعترفت. ردّ فتحى فى شماتة.!

أكمل دون أن يلتفت إليه: يجب أن نخفف المعاناة عن الشعب.

- كيف؟ هذه هى القضية. تساءل فتحى.

- ما أقوله ليس من عندى، لكنه أوامر عليا.

- الصحافة ليست عملا إداريًّا - واصل سمير - يأمر الرئيس فيطيعه الموظفون.

- المفكر ضمير مجتمعه يا خالد بك. رد بريقع.

- اسمع يا خالد بك. قال فتحى.

- نعم.

- رغم حرصى على المجلة لن أناقشك كثيراً.

- لم؟

- أشك أن حالها سينصلح. أصبحنا مجرد أدوات، ننفّذ كل شيء بإرادة عليا!!

- والنتيجة؟

- كما ترى.

* * *

- تصور يا حازم؟

- أيوه يا أستاذ فتحى؟

- الشناوى استبقانى على انفراد بعد المناقشة، وسألنى عن رأيى فى أميرة. قال فى تبجّحٍ إنه يبحث عن مصلحتها، ويتمنى أن يزوجها أحد أقاربه إن كانت - فى رأيى - حسنة السير والسلوك؟

- تعتقد أنه جاد؟

- أعتقد شيئاً واحداً.

- هو؟

- أظنك تفهم.

- بالمناسبة يا فتحى، يبدو أننى سأطلق العزوبية قريباً.

- عقبى لنا. من؟

- فتاة من بورسعيد.

- طالبة أم موظفة؟

- لست أدرى!!

* * *

دخل بريقع مكتب ربيع، ترك ربيع ما كان مشغولا به من كتابة. نظر بريقع إلى سماء الغرفة فى حيرة:

- بدأت أحس أنى غريب عنكم!

- كيف؟

- لم نعد نسهر سوياً، أو نشترك فى مناقشات.

- المشاغل كثيرة؟

- أحس أنى شخص غير جدير بالمسئولية، وأنكم تخفون عنى أشياء؟

- عيبك، وربما ميزتك أنك تتعامل مع كل الناس بروح واحدة.

- هل هذا ينفى أنى مخلص؟

- هذا يُحيّر معك الصديق والعدو!

- لا ياربيع. طيب أنا، وأحب الهزار والضحك، لكنى مخلص، ووطنى، ويمكن الاعتماد عليه.

تحول الزجل المهرج إلى طفل ساذج، كاد يبكى. سكت ربيع، وشغل بالأوراق أمامه.

- سأتكلم مع الزملاء عنك.

- صحيح، متى؟

* * *

دخل ربيع إلى مكتب فتحى فوجد عنده حازم:

- أمر مستعجل، لا أستطيع تأجيله.

- ما هو؟

- بريقع يريد الانضمام إلى التنظيم؟

- صحيح؟ قال فتحى ثم أكمل:

إذا استيقظ ضمير بريقع فليس من المستحيل أن يبعث الله الموتى؟

* * *

(١١)

١ + ١ = ٢

٣ – ٥ = – ٢

س + ص – ب × ٣ج = ؟

ابن حَواء خطّاء:
الخطيئةُ الأولى له
والثانيةُ عليه
والثالثةُ
عشرةُ حِمار.

انتصف ليل ١٥ فبراير ١٩٧٠، بينما كان فتحى يستعد للنوم دق جرس التليفون فقطع صمت الليل. خرج إلى الصالة وعاد بعد نصف ساعة فوجد زوجته يبدو عليها الانفعال:

- مع من كنت تتكلم؟

- الأستاذة أميرة.

- كيف تجرؤ امرأة أن تكلم رجلا متزوجًا فى هذا الوقت المتأخر؟

- شغل.

- نصف ساعة تتكلمون فى الشغل أم تتحدثون عن الحيرة والتعب، ياقلبى؟

- تضربين الرمل؟

- سمعت ما قلته كلمة.. كلمة.

- غير معقول!

وضع رأسه بين الوسادتين، فبدا جسدًا بدون رأس، بينما استمرت نظيرة:

- ينهدّ حيلى كل يوم فى عمل البيت وتربية الأولاد، ثم تأتى هذه المائعة لتعاكسك وأنت بجوارى؟

جثة هامدة صار..!! لكن صوت زوجته لم يتوقف:

- مافائدتك لى؟ زوج عيرة؟ قم وحاسبنى.

أخرج رأسه فى انكسار وتكاسل، أحس أن مخه قد طار، طار بعيدًا إلى حيث لا يدرى.

- تعالى، تعالى يا نانا. لم أنت غاضبة؟

حاول أن يضمها بذراعه فتملّصتْ.

- رجل متعب؟

أعطته ظهرها، وتظاهرت بالنوم.

استيقظت فى دماغه كل الحقائق والأوهام: مصر، الفجر الجديد، أميرة، نظيرة، فاروق، فاتن، الحرمان، الرغبة، النكسة، الحرية. تداخلت كل الخطوط والمساحات. أيها الرب العادل فى السماء، كيف نسير والظلام.. الظلام شديد. أمة عربية ممزقة. وطن محتل. مجلة هابطة. العمل السرى عاجز. النضال العلنى مستحيل. زوجة جاهلة. حبيبة فى الطريق إليها شوك وصخر. ليتك كنت كبيرًا يافاروق. متى تكبر، حتى اتخذ منك صديقًا، أشكو لك، افتح صدرى؟!

صوت عربات مطافىء يعوى، يعوى. هناك حريق لايدرى أين مكانه؟ نظر عبر فتحات الشيش، الظلام شديد، بينما راحت نظيرة فى سبات عميق. كاد يضرب رأسه فى الحائط حتى يسكت.

صرخات عذاب تشتعل داخله.

* * *

- شهر كامل وأنا أبحث عنك ياسوزى.

- لست محترفة، أعمل فقط، عندما يشتد المرض على أبى.

- لو كنّا فى عصر آخر، لسميتك سانت سوزى.

- القديسة سوزى مرة واحدة يا حازم.

- الظروف حينما تضطرنا إلى الخطيئة فنحن أبرياء.. ضحايا.

- يبدو أنك إنسان غريب.

- أنا مثلك ضحية.

- فلسفة أم شفقة؟

- هذه حقيقة، حقيقة مرة، سميها ماشئت.

- متى تريد أن نذهب إلى الشقة؟

- لن تدخليها وحدك، سأتزوجك، وتأتى كل الأسرة للإقامة معنا.

- أرجوك، لا أتحمل هذه السخرية.

- سأتزوجك، سأتزوجك، حتى غصبا عنك.

سوزى طالبة فى الثانوية العامة. عمرها ثمانى عشرة سنة،

تمارس البغاء منذ سنتين. زمن مر. فى الخامسة من عمرها وعت الدنيا مع عدوان ١٩٥٦، ومع بداية المراهقة أرهقتها نكسة ١٩٦٧. هاجرت من بورسعيد تحمل جراحًا لا تجفْ. صارت عاهرة فى عمر الزهور. لم يعد لها فى الحياة أمل، سوى أن تعالج أباها، وأن تأكل، تأكل بثدييْها هى وأخواتها الثلاثة.

- هذا كثير. ماذا ستقول لأهلك؟

- أنا مقتنع بما أفعل و هذا يكفى.

- قد تحتقرنى يومًا.

- سانت سوزى. أنت ضحية.

- كلنا ضحايا.!

* * *

- خالد بك، رجل فى مثل كفاءتك ويعجز عن تأديب بعض الكتبة، ومعرفة مايدبرون؟

- فى الحقيقة يا سيادة النائب.. الرجال الذين يعملون معى عددهم لايكفى.

- الإدارة كلها مقلوبة. الصحفيون فى الفجر الجديد حركتهم تدعو إلى الريبة.

- لهذا جئت إليك.

- ما ترى؟

- شددوا المراقبة عليهم، خاصة فتحى وحازم وربيع وأميرة، قلبى يحدثنى أنهم أعضاء فى تنظيم سرى.

- الوزارة عندها من الأساليب ما تستطيع به أن تعرف حركة كل نملة فى البلد.

- المهم أن تأدبوهم قبل أن تصل أخبارهم للرئاسة.

- ما نفعله من أجل المصلحة العليا للبلاد.

- نحن فى حالة حـرب، يجب أن نحافظ عـلى سلامـة الجبهة الداخلية.

* * *

فى ذكرى إعلان الوحدة بين مصر وسوريا - مضى يتحدث نعيم عدنان وقد استضاف فى بيته. فتحى، وأميرة، وحازم، وسوزى، وربيع، وسمير:

- أردت أن نتقابل لنحيى هذه المناسبة القومية.

قالت أميرة: الوحدة أمل، أمل الجماهير، لكنى غير متفائلة.

- الأمل الحقيقى فى أى وحدة ينبع من مصر - واصل فتحى - لكن مصر مشغولة بالحرب، والفقر ومشكلات أخرى.

- الجماهير العربية - مضى ربيع - ينقصها الوعى الكافى.

- رغم كل هذا التاريخ؟ تساءل سمير.

- نحن فى حاجة إلى محمد على من جديد.

- ماذا تقصد ياحازم؟

- لن تتم الوحدة إلا على طريقة محمد على، بالقوة، لا أؤمن إلا بهذا السبيل. القوة فوق كل شىء. هكذا قال نيتشه.

- سوريا والعراق يمكن أن يقوما بدور كبير. قالت سوزى.

- فى العراق كلامهم أكثر من فعلهم.. يبدو أنهم لايجيدون سوى الكلام - واصلت أميرة - أما سوريا فيكفى أنها سبب النكسة، وقلاقل لبنان، وتشتت المقاومة الفلسطينية.

- لم أنت حادة هكذا يا أستاذة أميرة؟ تساءل نعيم.

- معها حق يا أستاذ نعيم. أجاب فتحى.

- عجيب أن كل بلد عربى - واصل ربيع - يملك ظروفًا طبيعية وبشرية ممتازة، لكن لا أحد يرى الأفق...؟!

- الاستعمار العالمى - قال سمير - ضدّنا جميعًا.

- ونحن نساعده على ذلك. قال فتحى.

ردد حازم وهو يكور يده اليمنى ويضربها فى كف اليسرى: الأمل الحقيقى فى محمد على جديد.

* * *

– أميرة، لم أعد قادرًا على الاستغناء عنك.

– ولا أنا يافتحى، لكن؟

– الظروف، المشاكل. أليس من المفترض أن يتحـدى الإنسان الثورى الظروف؟

– لو تزوجتك لكان هناك ضحايا، ضحايا أبرياء.

– من تقصدين؟

– أولادك.. الزوجة التى وقفت بجوارك خمس عشرة سنة.

– لن يضاروا فى شىء، سيظل البيت مفتوحًا، لن آخذ منه قشة، ولن أقصّر فى التزاماتى.

– هل هذا يعوّض غيابك عنهم؟

– أعتقد ذلك.

– إذا قبل الأولاد بالأمر الواقع، فهل ترضاه نظيرة؟

– أظن ذلك.

– المرأة تقبل كل شىء إلا هروب الزوج. قد تستسلم لوفاته، لكنه إذا فرّ من العش فإن أى قطة بريئة تتحول إلى نمرة مفترسة!

– دائمًا تعقدين الأمور.

– لأنها معقدة بالفعل. ثم هل ترى أن والدى سيوافق؟

- إنسانة تقدمية مثلك تقول هذا؟

- تنسى أحيانًا ما تقول!

- وهو؟

- نحن ضحايا الظروف!

كانت تتلاشى أن تقع عيناها فى عينيه. كانت تحس أنه يتعذب عذابًا حقيقيًا شاملا. عذبه حب القومية العربية وحب مصر وحب المجلة، وأخيرًا حبى له. حتى حبى له يبدو مستحيلا! كل أنواع الحب صارت فى المنفى. لا أمل فى تحقيق أى حب حقيقى يافتحى. لو فتح الطريق لتحقيق حب واحد.. أمل واحد، لانفتحت كل الأبواب المغلقة. تأملت النيل عند الغروب. المياه ساكنة والأشجار انحنت عليها باكية. السماء تنذر بمطر قريب.

أفاقا على صوت الجرسون: الحساب يا أستاذ؟

* * *

- كنت أتمنى أن أقيم لك فرحًا مثل فرح قطر الندى ياسوزى.

- ما فعلته أكثر مما كنت أحلم به ياحبيبى.

- كيف نقيم فرحًا والبلد كلها فى مأتم؟!

شدت الملاءة حتى تغطى صدره المكشوف:

- كُنّا: أنا وأبى وإخوتى مثل القطط الضالة، يكفى أنك حميتنا

من الضياع.

- كلنا ضائعون ياحبيبتى.

- سأحميك من كل شىء، لقد آمنت بك مناضلا.. وحبيبًا. أنت أعظم من رأيت.

- متى يأتى يوم الخلاص؟!

- قريبًا ياحبيبتى.

- فى النهار يطاردنى رجال ذوو أحذية ثقيلة، وفى الليل تطاردنى الأوهام. أحس بخوف لم أعرفه من قبل ياسوزى.

- تخاف وأنا معك؟

مدت ذراعيها فاحتوته فى صدرها، وأطفأت نور الأباجورة قائلة:

- كفى ثرثرة، لا تنس أننا فى شهر العسل.

* * *

(١٢)

٥ - ٢ = ٣ + ١ = ٤ ÷ ٢ = ٢ × صفر = صفر

يُجاهد الإنسان طوال عمره
بحثاً عن الحكمة
وعندما يُدركها
يموت.

- تناول إخوتك العشاء ياسوزى؟

- نعم.

- وأبوك؟

- أخذ الدواء ونام يدعو لك.

- حدثينى عن زبائنك؟

- عالم كله شواذ.

- مثل؟

- أزواج ملّوا الحياة الزوجية، موظفون وزعتهم القوى العاملة على أماكن لاتناسبهم، بعض طلاب الجامعة.

- كنت سعيدة؟

- مستحيل، حياة غير إنسانية. كان كل منا يطلب عند الآخر شيئًا واحدًا، واحدًا فقط.

- ماهو؟

- لذة الجسد فى مقابل حفنة قروش.

- ......

- تصور؟

– ماذا؟

– معظمهم كانوا أغوات، مساطيل، أو سكارى، لم يكن عندهم شيء يعطوه أو يتحدّثوا عنه.

نظر إليها فى صمت وضمها إليه. ضوء الأباجورة ضعيف. نجفة معلقة فى السقف تهتز فى ضعف كأنها شبح مصلوب. أشعلت سيجارة وابتلعت الدخان فى شراهة، وطردته يتلوى، ويضيع فى الضوء الشاحب.

– هذه العلاقة العبودية لايمكن أن تتم فى ظل حرية حقيقية ياحبيبتى.

– كانوا يقتلون السأم بالوهم.

– إذا لم نحارب الظلم فلن نأمن على أى قيمة.

– لم يحاول واحد غيرك أن يكلمنى فى أى شيء.

– إذا ضاعت الحرية فقد الناس القدرة على كل شيء.. الإنسان إذا فقد حريته فقد آدميته.

– الإنسان الوحيد الذى عرفته خلال سنتين هو أنت. تمنيتك زوجًا، ظننت أنى أحلم بالمستحيل. مايزال فى الدنيا خير.

– إذا حاربنا من أجل الحفاظ عليه.

صمتت فى تكاسل، أسبلت عيناها فى ضعف. تناثر الشعر حول

الرقبة. بدت مثل حمامة حائرة. ضمها إليه. تعلقت بـه فى عصبية. سعل والدها بشدة سعلة حادة جافة. انسحبت فى سرعة وخرجت. عادت الحورية فى قميص نوم أبيض.

– آسفة ياحبيبى، جاءته النوبة، أعطيته الدواء.

ضمها إليه من جديد. أحس ضربات قلبها.

– قبّلنى، ضمنى إليك ياحبيبى، فأنا فى حاجة إليك.

وحّد الحب بينهما كما وحذ نارمر مينـا بين الـوجهين. الجنس قـاسم مشترك بـين الإنسـان والحيـوان. لكن الإنسـان الحقيقى لايمارسه إلا مع.. مع من.. من يحب. المودة الصادقة بين اثنين خلق وولادة، نظر إليها وقد ارتوت بماء الحياة. الألف إلى الياء تصير. تراخت وقـد أمنت.. أخصبت. أرض الأمل لا تعقم أبـدًا. أطفأ الأباجورة وضمها الظلام.

* * *

تساءل فاروق: لم تأخر بابا ياماما؟

– عندما يأتى اسأله.

بدت نظيـرة عصبية مثـل قط مطارد. قـالت فى عصبية لفـاتن وفاروق:

– صارت الساعة الحادية عشرة. قوما إلى النوم.

- اقتربت مواعيد الامتحانات، يجب أن نسهر.

كان فاروق فى السنة الثالثة الإعدادية وفاتن فى السنة الأولى. «خلف الملوك صبية ومملوك» هكذا كانت تفخر بأولادها، لكن إحساسًا مبهما ينغّص عليها حياتها. راجعت سيرتها مع فتحى فوجدت أنها لم تغير من عادتها شيئًا. تطور فتحى من صحفى ناشىء إلى رئيس تحرير وسياسى كبير. لم تحاول أن تتطور معه بنفس القدر. هل العيب منه أو منها، فيه أو فيها، لاتدرى. الشىء الأكيد الذى بدأت تحسه دون دليل، أن فتحى صار بعيدًا عنها. صار نجمًا من نجوم الفكر والصحافة والسياسة، لكنه بالنسبة لها صار إنسانًا غريبًا.. اهتزت الصورة.

- ماذا حدث يافتحى؟

- لاشىء.

- لم تعد كما كنت؟

- كل مافى الأمر أن مشغولياتى قد زادت.

- لست مقتنعة بما تقول.

- ولا أنا.

أعطاها ظهره ونام مهدود الحيل.

* * *

- هل جاء الأستاذ فتحى ياعم إسماعيل؟

- لا يا أستاذ بريقع.

مشى نحو مكتب ربيع، دخل عليه وصافحه:

- المجلة اليوم خراب.. حازم فى إجازة شهر عسل، وأميرة فى إجازة عارضة، الأستاذ فتحى لم يأت. حتى خالد بك صار يتغيّب بشكل واضح.

- شىء عادى.

- الدنيا مقلوبة ياربيع.

- ربنا يسلم. المهم لا تنس الليلة.

دق جرس التليفون.

- أهلا أستاذ فتحى شغلنا عليك.

- ......

- لن تأتى اليوم.. اطمئن سأهتم بكل شىء وسأمر عليك فى المساء.

وضع سماعة التليفون فتساءل بريقع:

- ماذا قال؟

- لا شىء سوى أنه لن يحضر اليوم.

- صدقتنى الدنيا مقلوبة.

- خذوا الحكمة من بريقع.

* * *

فى كافتيريا هيلتون دخل فتحى فوجد ربيع فى انتظاره.

- مساء الخير ياربيع.

- أهلا بك. ما الأمر؟ شغلتنى.

- قررت إلغاء اجتماع الليلة، لأن المراقبة شديدة، وأخشى أن يكتشف أمرنا.

- وهل نستسلم؟

- يجب أن نغير تكتيك الحركة، وإلا قبضوا علينا جميعًا.

- المهم؟

- معظم الأعضاء قد عرفوا ذلك ماعدا حازم، ابحث عنه تحت الأرض وقل له.

- لن تأتى معى؟

- أنا فى انتظار أميرة، لأنى لم أستطع أن أقول لها فى التليفون. مع السلامة.

طلب زجاجة بيرة وأشعل سيجارة. مثل الساعة لاتقدم ولا تؤخر

حضرت فى السابعة والنصف.

- مساء الخير.

- أهلا أميرة.

صب كأسًا من البيرة وأشعل لها سيجارة. كانت القاعة مثل سفينة نوح.. فيها أوربيون وعرب كثيرون وبعض المصريين بدرجة ساءل فيها نفسه: هل هذا المكان حقًا فى مصر؟

- أصبحت تسرح كثيرًا يا أستاذ.

- كل شىء صار غير مريح، حتى البيت.

- حساسيتك الشديدة تجعل مشاعرك دائمًا حادة.

- أحس أنه لا أمل فى أى شىء.

- صحيح؟

- إلا فيك يا حبيبتى!

- من أين طلعت لى؟ لا أستطيع أن أرتبط بك أو أن أتخلى عنك.

- أنت التى أحببتنى فى البداية وفتحت عينى على الحب.

- فتح يا فتحى.

- أحاول رغم...

– تأخرنا على الاجتماع.

– ألغى.

– لم؟

– علمت فى ساعة متأخرة أننا مراقبون فقررت إلغاءه خوفًا على الزملاء.

– بلغتهم جميعًا؟

– لم يبق سوى حازم وقد ذهب إليه ربيع.

– هذا الرجل أسطورة فى هذه الأيام السوداء.

– أتنبأ له بمستقبل عظيم. الوحيد الذى أرشحه خلفًا لى.

– ليتنى مارفضت طلبه للزواج.

– وتتركينى يا أميرة؟

– الكبار أمثالك يجب أن يضحوا.

– لقد ضحى الأنبياء، لكنهم أحبوا وتزوجوا أكثر من مرة.

– تغلبنى دائمًا فى الحب والكلام. قم حتى أعود لأمى يومًا مبكرة، وأرى أبى قبل أن ينام فقد نسيت شكله.

– ماترين.

مرقت السيارة تحت نفق العباسية. فى الطريق إلى مصر الجديدة

أوقف المسجل.

- أشعلى سيجارة. خفت حركة المرور يمكن أن نتكلم.

أعطته السيجارة وأشعلت لنفسها واحدة: فيم؟

- لو وافقت على الزواج سأعمل لك بيتًا لاينقصه أى شىء.

- ما أريده هو أنت، أنت فقط.

- أحس أنى بك أصبح أكثر قوة وقدرة.

- والجريدة، والسياسة؟

- تعرفين كم أنا مخلص لهما.

- فاروق وفاتن؟

- إنهما جزء منى، وإذا قصرتُ فى حقهما فلن أفى لأى مبدأ.

- أنت عظيم ياحبيبى. تصور؟

- ماذا؟

- أتمنى أن أعيش حتى أرى كل أحلامك تنبت وتصبح شجرات مزهرة.

- معك سأقهر المستحيل.

- إن شاء الله ياحبى.

* * *

دق جرس التليفون فى منزل فتحى فى الثالثة من فجر يوم ٢١ أبريل ١٩٧٠. كانت نظيرة مؤرقة، لكنها لم تشأ أن ترد. هزته من كتفه.

- قم لترد على حبيبة القلب التى تطلبك دائمًا فى عزّ الليل؟

- قولى مرة كلمة طيبة.

أشعل النور بينما تقول:

- طبعًا أصبح كلامى لايعجبك، البركة فى حبيبة القلب الجديدة، ترى من هى؟

- أيوه ياربيع؟

- ....

- مستحيل. هل أنت متأكد؟ سآتى حالا. أنت الآن فى القصر العينى. وضع السماعة وبدأ يرتدى ملابسه فى عجلة، وهو يثرثر كالمخبول:

- حازم يموت؟ كيف؟

- ما تقول يا رجل؟

- حازم قتل.

- لست أصدق؟!

- لم تعودى تصدقين شيئًا.

شد الباب خلفه فى قوة وغاب فى الظلام.

(١٣)

+١ × صــفر = صــفر

-١ × صــفر = صــفر

صــفر × صــفر = صــفر

كم أنت قاسٍ أيها المـوْت؟

عندما نتمّناك لا تأتــى

وحين لا نريدك.. تأْتِــى

فمــتى...

متى تموت أيها المــوت؟

في مساء اليوم التالى لمصرع حازم كان فتحى وربيع وبريقع وسمير وأميرة وسهام يواسون سوزى، التى بدت مثل إيزيس. إيزوريس قتله ستّ، ترى من يكون ست الجديد الذى قتل حازم؟

- لا يفارق منظر استشهاده خيالى؟

- كيف يا مدام سوزى؟

- خرجنا فى هذا اليوم، زرنا أماكن كثيرة، تغذّينا كبابا وكفتة فى حى الحسين، وزرنا الضريح. كان فرحاً فى قمة سعادته. مسكين يا حبيبى، قلبه كان يدرك أن هذا آخر يوم.

تشنجت وإرتعشت، احتبس صوتها. قالت سهام وهى تربت على صدرها: كفى. كفى يا حبيبتى.

أردف بريقع باكياً: سمعنا هذا الحديث منك أكثر من مرة فلم تقطعين قلبك وقلوبنا؟

- فى الطريق إلى مقر الاجتماع - واصلت سوزى باكية - اعترضنا شخص يلبس نظارة سوداء، فرّق بيننا، أصبحت على الرصيف، وحازم فى الشارع، سيارة مسرعة ظهرت فجأة، ضربته بقوة، مات. حازم مات. مات يا فتحى. مات يا ربيع. مات يا سمير. مات.

ما... مات. ما... آه.. آ....

أغمى عليها.. ساد صمتٌ مرّ، بينما أميرة وسهام تحاولان أن تفيقاها. سعال أبيها يأتى حادًّا متواصلا، دخل بريقع يحاول إسعافه. حملت سهام وأميرة سوزى إلى حجرة النوم.

- أحس أنى مسئول عن قتله. قال ربيع حزيناً!

- بل أنا المسئول. أنا الذى تكاسلت فى إبلاغه - صاح فتحى فى عصبية - أنا المسئول. أنا، أنا.

قال سمير فى هدوء: اتركا هذا وفكّرا فى المسئولية، فيما يجب عمله لأرملته.

- اسمع يا ربيع، اسمع يا سمير - قال فتحى - من اليوم سيتوقف نشاطنا السرى؛ نحن مراقبون، كلنا معرضون لما تعرض له حازم.

قال ربيع فى هدوء: نعم يجب ألا نلقى بأنفسنا إلى التهلكة.

- وماذا بعد؟ تساءل سمير بينما دخل بريقع.

- ما كان يكتب فى منشورات سرية، سوف أكتبه فى المقال الافتتاحى للمجلة وليكن ما يكون.

سمع طرق على الباب. دخل شريف باكياً:

- البقاء فى حياتكم. عرفت الخبر متأخرًا؛ كنت مسافرًا.

- البقية فى حياتك يا شريف. رد بريقع.

- يا حبيبى يا حازم. كيف مات؟

- لقد استشهد يا شريف.

- لكن المكتوب فى صحيفة «النجوم» المسائية غير هذا.

أخرج الجريدة من جيب الجاكتة، فتح الصفحة الأولى وأخذ يقرأ بصوت متحشرج:

مصرع صحفى فى ظروف غامضة

علم مندوب الجريدة من مصدر موثوق بـه أن الصحفى حازم حسام الدين الـذى لقى مصرعـه أول أمس، قد تـوفى فى ظروف غامضة. وبالبحث والتحرى وجد أن المذكور لم تكن له عـداوات شخصية مع أحد. وقد لمّح بعض المسئولين فى المجلة التى يعمل بها مجلة «الفجر الجديد» - ومن المعروف أنها تضم كثيراً من المتطرفين الذين سبق اعتقالهم - أنه ربما كان متورطاً فى التعامل مع جهـة أجنبية.

وقد توصل مندوب الجريدة إلى أن السر الحقيقى وراء مصرعه له علاقة بزواجه الجديد، فقد تزوج امرأة غير حسنة السير والسلوك، ويبدو أنه قتل بتدبير من أحد عشاقها السابقين...

- كفى، كفى، صاح ربيع.

- أصبحت كل الحقائق مقلوبة. تمتم فتحى.

- الأوغاد، يريدون أن يصرفوا النظر عن الفاعل الحقيقى. قال سمير.

- هذه محاولة لتشويه سمعة مجاهد عظيم وصحفى شهيد. قـال شريف.

- أول الغيث قطرة. قال بريقع.

- سأكشف الحقيقة للناس. كلنا حازم.

قال فتحى وهو ينظر إلى ساعة فى الحائط.

- كلنا ضحايا. أكمل ربيع.

- وكلنا مذنبون. أضاف شريف فى حسرة.

صاحت سوزى بعصبية: حازم يا حبيبى. جاءت من حجرة النوم، لميرة وسهام خلفها:

- لبست لك قميص النوم البمبى الذى تحبه. تعال يا حبيبى. لن أنام إلا معك. لقد تبت على يديك. أنت رجلى الوحيد.

دخلت وسطهم هائجة وأخذت تمسكهم واحـدًا واحدًا صـائحة: حازم مات، حازم مات، لم مات؟ ولم أنتم أحياء؟

وقعت مغشيًّا عليها. أعاداها إلى الحجرة. بقيت معها أميرة بينما خرجت سهام قائلة:

- لقد تأخرت على زوجي، أميرة سوف تقضى الليلة هنا، لو سمحت يا أستاذ فتحى اتصل بأمها.

- تستطيعون أن تذهبوا جميعاً - واصل بريقع - لأنى سأنام هنا أيضاً فقد يحدث لسوزى طارئ.

* * *

- فى صحتك يا خالد بك.

- فى صحتك يا وحيد بك.

قربت مدام زينب منهما أطباق المزة قائلة:

- لقد أشاع موت حازم جوًّا من الكآبة فى المجلة.

- الحجر الدائر يا مدام زينب - واصل خالد - والله لقد حزنت عليه كثيراً.. وقد نصحته.

- شباب متهور. قال وحيد.

- تصور يا وحيد بك يدعى أنه مناضل واشتراكى ثم - لا مؤاخذة يا مدام - يتزوج مومس؟

- يبدو أن النضال تحول من الميادين إلى حجرات النوم.

- هل سيصرفون لزوجته معاشاً؟ تساءلت زينب.

- هذه مسألة تحتاج إلى لوائح شئون العاملين.

- قالوا إن زوجته حامل.

- هل تعقلين هذا يا مدام؟ لم يمض على زواجهما شهر.

- أكيد تزوجها حاملا. ردّ وحيد.

- سبحان علام الغيوب.

- ربنا أمر بالستر.

قالت مدام زينب ثم تسللت إلى الداخل.

* * *

فى مكتب فتحى تجمعوا.. أمسكت أميرة بنسخة من المجلة قائلة:

- مقالك عن مصرع حازم أكثر من رائع.

- لم أكتب سوى الحقيقة، الحقيقة المرة.

أخذ منها بريقع المجلة ومضى يقرأ فى حماسة:

استشهاد صحفى مناضل

«اهتزت الأوساط الصحفية والفكرية فى مصر والوطن العربى لنبأ استشهاد المناضل العظيم حازم حسام الدين نائب رئيس تحرير المجلة، الذى اتخذ من القلم سلاحاً يناضل به من أجل الحرية

والوحدة والعدالة. ولم يستسلم حازم يوماً لأى تهديد أو تحد، فقد كان فكره وحياته مثال المناضل الشريف والإنسان الملتزم وهو يكمل مسيرة الصحفيين المناضلين أمثال: رفاعة الطهطاوى - عبد الله النديم - على الغاياتى - عباس العقاد...

دخل شريف فجأة، وقال فى انفعال:

- آسف أن أبلغكم نبأ وفاة والد سوزى.

- مسكينة يا حبيبتى. تنهدت أميرة.

- عندما تأتى الحزينة لتفرح. قال بريقع فى سخرية.

- «إنا لله وإنا إليه راجعون» تمتم ربيع.

- قوموا لنرى ماذا نفعل؟

صاح فتحى. ثم خرجوا معه.

* * *

يوم الجمعة ظل نائماً حتى الظهر. دخل عليه طفلاه الحبيبان.. قبّلاه وأحاطا به. قال فاروق:

- انتهت الامتحانات.

- وبدأت الإجازة يا بابا.. أكملت فاتن وهى تحتضنه.

- يبدو أن هناك مؤامرة من العصافير.

- نريد أن نصيف هذا العام فى مرسى مطروح.

قال فاروق بينما أكملت فاتن:

- واللّعب، والكتب؟

- من عينى هذه، وعينى هذه؟

قبلته فاتن: سلمت عيناك يا بابا.

- أريد عجلة يا بابا.

- فى العجلة الندامة يا باشمهندس.

- لن أكون إلا طياراً.. يسافر فى السماء.

دخلت نظيرة فصاحت:

- تجلسان على السرير وأنتما تلبسان الأحذية.

- آسف يا ماما. قال فاروق.

- إلى حجرتكما. صاحت الأم.

- اتركى الأولاد فى حالهم. إنهم فى إجازة.

- لو كنت تتعب فى الغسيل لما قلت هذا.

خرج الصبيان فى صمت بينما سألته فى عصبية:

- لم عدت متأخرًا؟

- كنت عند مدام سوزى

- أكيد تريد أن تضمها إلى حريمك.

- كيف تفكرين يا امرأة؟ أصبحت إنسانة لا تحتمل.

- لولا أن كلامى صحيح لما ثُرتَ بهذه الحدة.

- سامحك الله.

اتجه نحو الحمام وأغلق الباب خلفه.

* * *

(١٤)

حياة × قلق = ؟

مثل صمت الليل حين يظلم
وموج البحرِ حين يمتدّ
يكون حزنُ الإنسان
عندما تعصف به رياح الزمان

مع منتصف الليل عاد من مصر الجديدة بعد أن أوصل أميرة إلى بيتها. كانت السهرة كالعادة مع سوزى. رغم الإرهاق لم يشعر برغبة فى العودة إلى البيت. دخل إلى بار فندق شبرد. طلب كأساً من الويسكى. وحيداً مع السيجارة والكأس جلس. تأمل عالم السكارى. اقترب منه عجوز ثمل:

- ولّع لى لو... لو سمحت.

أخرج الولاعة. ضحك العجوز مترنحاً:

- أعطنى السيجارة، السيجارة أولاً، ثم ولع.. ولعها يا... يا بيه!

أخذ نفساً باشتهاء ثم أردف:

- كأس ويسكى، أتقبل؟

- موافق.

- ويسكى بلاك آند هاويت يا رجل يا... يا ايه... آه لم نتعارف...

صمت العجوز ثم أردف:

- أنا... أنا من؟... آه تذكرت... أنا من ضيع فى الأوهام عمره.

ضحكا من الأعماق، ثم قال فتحى:

- تشرفنا يا أستاذ.

- لست أستاذاً.. يا غشيم، أنا باشا.. باشا سابقاً.

ضحك العجوز، وقال فتحى:

- فى صحتك. فى صحتك يا باشا.

- ألا تعتقد يا... يا إيه؟

- حازم.

لم يدر لم أنكر شخصيته ولا لم اختار اسم حازم.

- لو أن البشوات يحكمون الآن هل يمكن أن نكون فى نكسة مثل هذه؟

صمت وقد استمرأ عملية التنكر:

- لا أحب السياسة.

- من الذى أوجد الديمقراطية، ونادى بالحرية، وأسس مصر الحديثة؟.

سكت فنهره العجوز صارخاً:

- انطق يا خروف.

- قل يا باشا.

- أحمد لطفى السيد... باشا، سعد زغلول... بـاشا، كـرر معى يا بنى آدم

- محمد محمود.

- باشا

- محمد حسين هيكل

- باشا

- عبد العزيز فهمى

- باشا

- طلعت حرب

- باشا

- طه حسين

- باشا

- على ماهر

- باشا

- مصطفى النحاس

- باشا

- الباشوات هم الذين صنعوا كل... كل شىء لمصر.

– لا أعتقد ذلك تماماً.

– أنت جحش والويسكى الذى تشربه أنظف من رأسك!

صمت الباشا برهة ثم سأله:

– أشرب أنا... أنا أشرب لكى أنسى... أنسى أيام العز يا ولد... لكن لم تشرب أنت؟

– حزناً على وفاة محمد على باشا

– الآن، الآن فقط، بدأت تفهم، سوف تكون باشا فى يوم من الأيام... كأساً ثانية على الحساب... على حسابى، يا جرسون الكلب.

زعق فجأة فى الجرسون ثم صاح:

– مزة نظيفة يا كلب

مضى يغنى:

أنا صاحبت صاحب وآترى صاحبى مصاحب
وأشكيك لمين يا زمن وأنت مالك صاحب؟

– يا سلام يا باشا.

– كلما أردت التوبة عن هذا الهباب الزفت، لم أستطع... بعد أن أصبحت باشا... باشا سابقاً.

– حال الدنيا يا باشا.

- يا ليل آه... يا عين آه... آه.

وديل الكلب ما ينعدل... آه..

يا ليل آه... آه... ولو... ولو...

بينها العجوز مندمج فى الغناء مرق بعيداً، وحيداً. نسمات الليل الباردة بدأت تصفع جبهته الساخنة. سار وحيداً والنيل. تلفت فلم يجد أحداً حواليه. الساعة الثانية بعد منتصف ليل ٣٠ يونيو ١٩٧٠. أغراه السكر والشجن بأن يقترب من صفحة النيل. خشى أن ينزلق قدمه. الخمر تجعل شاربها خائفاً يترقب. توقف وقد أسند ذراعيه على حديد الكورنيش. مع دخان السيجارة كان يتأمل حاضره الحزين وحياته المجدبة.

آه يا فاروق لو تعرف ما هى حالة أبيك!! ضاع العمر ولم يفعل شيئاً لمصر كما تمنى. الوهم والحسرة ثمرة الكفاح فى أرض جدباء يا فاروق، أشك فى أن أقدر على تربيتك كما أريد، لتكون استمرارًا لما أحلم به. أمك أحالت البيت جحيماً، والنكسة أفقدت الناس الوعى، مات عمك حازم يا فاروق، أحس أنى مسئول عن موته، بقدر ما أنا مسئول عن هدم العش الذى نعيش فيه.

وأنت يا فاتن يا ابنتى الحبيبة، هل ستغفرين لأبيك أنه طار عن العش، وبحث عن خلاص فردى لنفسه؟ نعم يا فاتن لقد يأس أبوك قبل الأوان. لا أمل، لا أمل فى شىء. العرب متفرقون

كما هم. مصر ما زالت تئن تحت وطأة النكسة. الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن آلام النكسة شلت العقول والقلوب. يا قلبى الممزق هل ستكون أميرة طريقًا للخلاص أم قيدًا جديدًا تضيفه إلى آلامك المبرحة، وتصبح كالمستجير من الرمضاء بالنار؟!.

تذكر أن أمه يوم ماتت لم يكن فى مصر. ظلت روحها تتحشرج إلى أن حضر. ساعة رأته أسلمت الروح. أخته قالت له باكية:

- أمك توصيك أن تهتم بنفسك، رأتك تخوض فى بحار من الدم والشوك، ولكنك فى النهاية وصلت حاملاً نخلة خضراء.

أخذ يصرخ بطريقة ملفتة: لماذا مت يا حازم؟ لماذا؟ بكى، بكى حتى لم يبق فى عينيه دموع. لم يكن يدرى على من، على من يبكى؟ سار نحو العربة منكسراً، وبشائر الفجر تعانق القاهرة نائمة.

* * *

- مساء الخير يا مدام سوزى.

- أهلا يا أستاذ بريقع.

- لقد انتهيت من جمع مقالات المرحوم كلها، واتفقت مع الأستاذ فتحى على أن يكتب لها مقدمة، سوف ننشرها فى كتاب.

- هذا بعض حقه عليكم.

- كان أخاً حقيقيًّا للجميع.

- لا تُثِرْ شجونى.

- مدام أتسمحين لى بطلب؟

- أظن أنه ليست بيننا كلفة، أنت الوحيد الذى يـرعانـا بعد المرحوم.

- من أجل هذا أريد...

- تريد ماذا؟

- كل شىء فى هذه الدنيا بإرادة الله، أنت شابة، وفى حاجة إلى عناية أنت وإخوتك، والوليد القادم.

- اخـرس، اخرس يـا بنى آدم. لو فكـرت فى شىء من هذا لا تدخل البيت ثانية. إياك.

- آسف. ولكن؟

- لن أعرف رجلًا بعد حازم، سأواصل تعليمى وأعيش من أجل تربية إخوتى وولده. حازم لم يمت ولن يموت، لن يموت يا بريقع، ولن أقبل ... لن أقبل... أتفهمنى؟

- أرجو ألا تسيئى فهمى؟

- كنت أظنك أخاً لحازم، لكنك رجل مثل الذين كنت...

- أرجـوك لا تكملى، الـدافع الـوحيد لمـا قلت هو رغبتى فى مساعدتك.

- أشكرك وأرجو ألا تتعب نفسك من أجلنا بعد اليوم.

- مدام سوزى أقول لك سرًّا. الوحيد الذى غيّـرنى وأثر فى فكرى هو حازم، تعلمت منه حب مصر والنضال من أجلها، وسوف أفى لكل ما استشهد من أجله.

- إذا كنت تعزه مثلى فساعدنى، ساعدنى كى أفى للإنسان الوحيد الذى انتشلنى من الضياع والعفن.

* * *

(١٥)

حريّة + محبّة = حياة

في الليل ناداني المحبوب
لو قتلتَ الغُول
أسقيك من سُلاف رمّاني

فى كازينو المقطم يجلس فتحى وأميرة.

- جو القاهرة فى أغسطس خانق.

- حتى الجو أمسى خانقاً يا فتحى. صار كل شىء كئيباً.

- لم أنت حزينة؟

- ولم أنت فرحان؟

- الظروف متقلبة دائماً. المهم أن يظل الإنسان متفائلاً.

- تتفاءل وسط هذا الجو؟

- اليهود فى الشط الشرقى يعربدون، والفدائيون مضيعون فى سوريا ولبنان، وشيوخ البترول يعبثون فى أمريكا وأوربا.

- كما أنهم لا يستثمرون أموالهم فى أى بلد عربى فقير.

- قلبى يحدثنى أننا قادمون على مرحلة قاسية.

- خسارة أن نوقف نشاط التنظيم.

- لا أتحمل مسئولية استشهاد واحد من الزملاء.

- موت. موت. متى نحيا؟

- لا يأس مع الحياة.

جاء الجرسون، وضع كوبيْن من الشاى.

- ما أخبار فاتن وفاروق؟

- لا أظن أن نظيرة تعاملها برفق؟

- أليست أمًّا؟

- أم طائشة.

- زلزلت حياتك يا فتحى!

- لم تكن موجودة أساساً.

- أما لهذا العذاب من نهاية؟

- يحسم كل شىء أن توافقى.

- خائفة يا توحة.

- على ماذا؟

- عليك يا حبيبى.

- لم أعد قادراً على النفاق فى أى مجال من مجالات الحياة. لن نعيش مرتين يا مرمر.

- وكلام الناس؟

- كل إنسان أدرى بمصلحته. أتعرفين؟

- ماذا؟

- أسوأ شىء فينا، هو أننا نهتم بشئون الآخرين كثيراً.

- ولا سيما الشئون الشخصية.

* * *

قال خالد الشناوى:

- مضت مدة طويلة ولم يحذف اسم حازم من هيئة تحرير المجلة.

- ولماذا نرفع اسمه؟ تساءل فتحى فى حدة.

قال بريقع فى حماس: حازم راح ضحية الغدر، كان أكفأ واحد فينا. لابد أن نكون أوفياء.

- اتفق مع بريقع تماماً. تمتم ربيع.

قال خالد وهو يسحب نفساً هادئاً من سيجاره الإنجليزى:

- يا جماعة. افصلوا بين الواجب والعاطفة.

- الإنسان وحدة متكاملة. ردت أميرة.

نظر إليها نظرة ذات مغزى: من الطبيعى أن تدافعى عن العاطفة يا آنسة أميرة؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد ما قلت!

تبادل فتحى وأميرة نظرة غيظ متكوم. قال فتحى:

- يجب أن يتصرف كل شخص فى إطار وظيفته، أظن أننى

الوحيد المسئول عن كل النواحى الفنية الخاصة بالمجلة.

– تنادى دائماً بالمسئولية المشتركة والديمقراطية، وحين نتناقش تريد أن تكون ديكتاتوراً يا فتحى.

– الديمقراطية ليست فوضى يا خالد.

– أرأيت أننا متفقون فى الاستراتيجية وإنْ اختلفنا فى التكتيك.؟

– يا خالد بك. نحن مختلفون فى الأيديولوجية!

– من أين تأتون بهذه المصطلحات العظيمة؟

– لكل مجال قاموسه.

– ولكل عصر رجاله يا أستاذ فتحى.

تبادل الجميع نظرات غيظ. دخلت سهام قائلة:

– آسفة على التأخير. المواصلات.

لم تجد مكاناً قامت أميرة وأجلستها، واتجهت نحو الباب قائلة:

– أريد أن أشم هواءً نقيًّا.

أضاف خالد: هناك أمر آخر.

– ماهو؟ تساءل سمير.

– يبدو أننا قادمون على مرحلة جديدة. أحداث لبنان، ومشكلات المقاومة الفلسطينية، وثورة الفاتح من سبتمبر، وزيارة روجرز وزير

الخارجية الأمريكى. كل هذه امور ليست سهله.

- ماذا تقصد؟ قال ربيع

- وصلتنلا أخبار مؤكدة أن الوزير الأمريكى سوف يحضر إلى مصر.

- من أجل ماذا؟ تساءل بريقع.

- هذا ما سوف تكشف عنه الأيام ولكن...

- ولكن ماذا؟ تساءل سمير.

- هذا يتطلب منا فى المجلة أمرين: الأول عدم تغذية الصراعات العربية الموجودة، ثم تعْتيم أخبار العلاقات مع روسيا وعدم انتقاد الموقف الأمريكى من قضية الشرق الأوسط.

- بهذا الأسلوب يا خالد بك - واصل فتحى - نكون فى مجلة سياسية بها مفكرون أم فى مدرسة ابتدائية تنفذ المنهج الدراسى كما يمليه المفتش؟

- هذه أوامر عليا أردت أن أقولها للجميع.

- لقد تعبت رءوسنا من كثرة الأوامر. قال ربيع.

- ليتكم تريحونا من تعب الرءوس.

- كيف يا أستاذ بريقع؟

- بأن تقطعوها.

- توقعت أن يأتى الاعتراض من الرافضين الآخرين - نظر إلى

فتحي وربيع نظرة سريعة - وليس منك أيها الرجل الطيب.

- الذى لا يرى من الغربال...

كاد الموقف يشتعل لولا أن أنقذه فتحى قائلاً:

- أى أوامر أخرى؟

- لم؟

- سأقدم استقالتى وأبحث عن عمل آخر.

ساد صخب، علت الأصوات.

- لا يا أستاذ فتحى، لو حدث هذا فنحن جميعاً معك. صاح بريقع.

قال خالد فى برود: انتهى الاجتماع. لا أقبل مثل هذه الفوضى، من يريد شيئاً فعليه أن يكتب بشكل رسمى.

* * *

فتح فاروق باب الشقة، فوجد الأستاذ ربيع وزوجته هدى مرتدية الزى الإسلامى.

- ماما.. ماما. عمو ربيع.

صحبهما إلى غرفة الصالون. جاءت فاتن، تبادلوا السلام والقبلات. أخرج ربيع لكل منهما هدية، وأعطت زوجته كل واحد باكو شيكولاته قائلة:

- هدية النجاح يا حبايبى.

دخلت نظيرة، بدا فى عينيها قلق وأرق:

- أين الأولاد يا جماعة؟

- فى النادى مع أصحابهم.

- فاتن ساعدى أخاك فى إحضار الكازوزة.

- لم نرك منذ مدة يا أم فاروق.

- كثرة المشاغل. تعرفان أن فتحى ترك علىّ الحمل كله.

أحس ربيع أنها توجه الحديث نحو الأمر الذى كلفه فتحى بالحديث فيه.

- الحق يا مدام نظيرة، الأستاذ فتحى يحمل حِمل جمل، لولاه لتوقفت المجلة.

- ما يحتاجه البيت يا ربيع يحرم على الجامع.

- هل قصّر الرجل فى شىء؟

- أنت صديقه، بلا شك قال لك شيئاً.

- أتكلم بحكم ما بيننا من أخوة وصداقة.

قالت هدى وهى تنظر إلى زوجها وقد غمزت له بعينها:

- كنت تقول أن الأولاد وحشونى.

– سأذهب لأراهم. خرج ربيع من الحجرة.

– اسمعى يا نظيرة يا أختى، نحن نساء علينا مسئولية كبيرة، اهتمى بزوجك وعامليه بحنان ومودة، لقد صار رجلاً له سمعته، وينتظره دور كبير. الفضل فى كل هذا لك...

انفجرت نظيرة باكية ونزلت الدموع.

– مالك يا حبيبتى. لا، المسألة ليست سهلة كما صورها ربيع. لم أنت حزينة؟

– لقد تغير فتحى، ولم يعد فتحى القديم.

– كيف يا حبيبتى؟

– لم يعد يأتى للبيت إلا للنوم. لم يعد يهتم بى ولا بالأطفال.

– مشاغل يا أختى كان الله فى عونه.

– قلبى يحدثنى أنه على علاقة بإمرأة.

– من؟

– واحدة تعمل معه فى المجلة اسمها أميرة.

– لقد سمعت عنها من ربيع.

– ألم أقل لك؟

– وماذا تنوين؟

- سأخرج من بيت لم يعد لى مكان فيه.

- تخربين بيتك، وتضيّعين أولادك؟

- إذا جاءك الطوفان دسْ على ابنك.

- اعقلى يا نظيرة.

- وهل بقى عندى عقل؟

- ربما كان الأمر شكاً من عندك، أو نزوة من عنده فانتظرى، اصبرى يا أختى.

- للصبر حدود.

- أنت أم وزوجة وصاحبة بيت.

- يغور الكل.

- لايصحُّ هذا يانظيرة.

- ماذا تفعلين لو كنت مكانى؟

- لو كنت مكانك ما حدث شىء من البداية. أكيد أنك فرطت فى حقه من سنوات. ما حدث - إن كان كلامك صحيحاً - ليس وليد اليوم. لكن المهم أرجوك. اعقلى وتصرفى بحكمة.

- تعبت يا هدى تعبت.

انفجرت باكية، وهدى تحاول أن تسكتها.

– ما هذا التخريف الذى سمعته يا فتحى؟

– ما تقصدين يا أميرة؟

– حكاية الاستقالة هذه؟

– كلمة قلتها فى لحظة غضب.

– وتنوى أن تنفذها؟

– ما رأيك؟

– أنت صاحب المشكلة. ناقشنى.

– تعبت، تعبت من كل شىء يا حبيبتى.

– لم تهزل، والأمور كلها جد من حولك؟

– هل أصبحت المجلة مجلة حتى أحرص عليها؟

– على الأقل احرص على سمعتك، على تاريخك، على كفاحك.

– يمكن أن أواصل فى أى مكان.

– وتبدأ من الصفر؟

– لا، من حيث وقفت.

– قلت تريد أن تترك البيت، فوافقت بعد إلحاح منك. أما أن تترك المجلة؟

نظر إليها فى صمت، بينما يطفىء الولاعة ويشعلها فى قلق وتوتر.

- كلمة واحدة يا فتحى.

- هى؟

- لن ترانى إذا تركت المجلة.

- لم هذه الحدة؟

- من خلال المجلة ستواصل كفاحك من أجل العروبة ومصر، والحرية والعدالة، وكل المعانى السامية التى هتفت بها.

مدت يديها وأمسكت يده فى حنان:

- ثم، لا تنسى أن هذه المجلة هى التى عرفتنى بك.

- أنت عظيمة.

- الوحيدة الجديرة بهذه الصفة، هى مصر.

* * *

(١٦)

١٠٠ × ١ = ١٠٠

١٠٠ × ١- = ١٠٠-

بنفس الكيْل الذى
به تكيلون
مِن الحقيقة
تُدركون

- بصراحة يا أستاذ فتحى المجلة أصبحت مثل الساعة، كل شىء يمشى بنظام وحكمة.

قال بريقع وهو يتبادل مع ربيع نظرة صامتة.

- كنتُ مخطئًا يابريقع حينما هددت بالاستقالة، أليس كذلك ياربيع؟

- إذا قصر كل فرد فى عمله فلا أمل. تمتم ربيع.

- على كل ياربيع الغ إجازات كل الموظفين الآن. يجب أن نبدأ مع سبتمبر بداية جادة.

- أستاذ فتحى - أكمل بريقع - لم تلغ الإجازات؟

- الأحداث تبدو خطيرة على الساحة العربية خاصة بعد فشل اللقاء مع روجرز.

قال ربيع: يبدو أن المقاومة الفلسطينية ستواجه أزمات شديدة فى سوريا ولبنان.

- المكان الحقيقى للمقاومة هو الأردن. قال بريقع.

- قلبى يحدثنى أن هذا الشهر خطير على كل المستويات. قال وهو يشعل سيجارة.

نظر إليه ربيع نظرة ذات معنى: كل المستويات يافتحى؟

سكتا بينما بريقع ينظر إليهما فى ريبة. ثم قال:

- تصوّروا النقابة لم تصرف لمدام سوزى المكافأة والمعاش بحجة أن المرحوم لم يسدد الاشتراك فى الشهور الأخيرة.

قال له فتحى فى حدة: لم لم تتصرف؟

- ماذا أفعل؟

- ادفع أنت الاشتراكات المتبقية.

- سأحاول، ولو أنى أحس أن هناك محاولة متعمدة للتأخير.

- ماذا سنفعل فى مقالات حازم؟ تساءل ربيع.

- ذكرتنى - مضى فتحى قائلا - من الشهر القادم سنصدر كتابًا سياسيًّا، ويكون كتاب حازم بداية السلسلة. هذه السلسلة مسئوليتك ياربيع أنت وبريقع.

نظر إلى بريقع ثم استطرد: جهز الأصول وهات من عند سوزى كل المقالات الباقية. بالمناسبة ما حالها؟

- بخير، وإنْ بدأت تعانى آلام الحمل.

- كان الله فى عونها. تمتم ربيع.

* * *

– لم عدت متأخرة يا أميرة؟

– العمل الآن كثير، والأستاذ فتحى أوقف كل الإجازات. بابا نام ياماما.

– أخذ الدواء ونام، ولكنه يتحدث معى كثيرًا عنك هذه الأيام.

خلعت حذاءها فى تكاسل: لم؟

– يقول كثيرًا: أريد أن أطمئن على مرمر قبل أن..

نزلت دمعة من عين الأم، انتقلت إلى جوارها. احتضنتها قائلة:

– هل أنا طفلة يا أمى؟ دائمًا تثقان فـىّ.

– لن تعرفى معزة الأولاد إلا حينما تكونـين أمًا يـاحبيبتى. متى يارب أحمل خلف أميرة؟

– فى حياتك أنت وبابا.. إن شاء الله.

– ماتقصدين؟

– هناك معجب فى الطريق.

– يالك من ابنة عاقة. لم لم تفرحى أمك. قامت الأم فأغلقت التلفزيون، وأحضرت لها كوبًا من اللبن الزبادى.

أحست أنها تورطت فى الكلام، فحاولت أن تتراجع: لم يصبح الأمر جادًا بعد.

- من من هو؟ قولى، قولى يا أميرة.

انتقلت أمينة وجلست بجوار ابنتها.

- واحد معنا فى المجلة.

- أحسن، أحسن يا ابنتى حتى تضمنى أن تكون سمعته حسنة، وشخصيته موثوقا بها.

- من هذه الناحية ضعى فى بطنك بطيخة صيف!

- طول عمرى أقول مرمر بنت حلال، وربنا سيعوّض عليها.

أحست أن السر يتبعها. إذا لم تُفضفض البنت لأمها فمع من تتناجى؟

- لم تقولى يامرمر؟

- على أن يظل الأمر سرًّا بيننا.

- لم يا ابنتى كفانا الله الشر؟

- قدر الله أن أحب رجلا متزوجًا.

- ياعيب الشؤم يا أميرة. كيف؟ من؟ قلبى كان يحدثنى أن وراء صمتك سرًّا.

أخذت كوب الزبادى وتشاغلت بالأكل حتى لاتلتقى الأعين.

- إنه فتحى عبد الكريم وقد اتفقنا.

دقت يدها اليمنى على صدرها فى حسرة:

- أحببت واتفقت. ما شاء الله، قم يـاسعادة المستشـار إبراهيم لترى ابنتك المتعلّمة.

- لم يحدث شيء. مجرد كلام.

- كلام عيال يا أميرة.

- لست قاصرة!

- ترفعين صوتك يافاجرة.

لوحت بيدها فى الهواء. قالت أميرة فى ضعف:

- كنت أود أن أناقش الأمر معك، لكن يبدو أن الحوار معك مستحيل.

قامت وذهبت إلى حجرتهـا وارتمت على السـرير دون أن تخلع ملابسها. وضعت وجهها على الوسادة، وبدأت تبكى فى صمت.

* * *

- حمدًا لله على سلامتك ياسعادة البك.

- مساء الخير يانظيرة. هل تعشى الأولاد قبل أن يناموا؟

- أولاد؟! وهل أصبحت تفكر فيهم؟!

- هذا البيت الممتلىء خيرًا، أليس من أجلك وأجلهم؟

– كان البيت بيتك حينما كنت فتحى القديم، الفقير، الذى لم يسمع عنه أحد، أما الآن...

– ماذا تقصدين؟

– شهرتك صارت لعنة على البيت ومن فيه؟

– يا امرأة، اخزى الشيطان.

– ما شيطان إلا بنى آدم.

نظر إليها فى غيظ صامتًا.!!

– دق جرس التليفون الليلة ثلاث مرات، كل مرة أرفع السماعة فلا يرد أحد، أكيد حبيبة القلب تريدك أنت، أنت فقط.

– هل أنا مسئول عن خراب التليفونات؟

– كلمة واحدة.

كان يخلع ملابسه فى تكاسل، أحس أن الحوار مؤلم وجارح. تماسك حتى لايعلو صوتها كالعادة. سكت حتى يقصر الشر.

– اسمع يافتحى. كل ما أنت فيه من شهرة ونجاح بفضلى أنا. أنا التى بنيتك، وقفت بجوارك، بعت مصاغى حتى تشترى لك مكتبا.

– جمائلك لاتنسى.

– لست ساذجة ولا عبيطة. كلمة ضعها فى أذنك مثل الحلق، إذا

تركتني فسوف أفضحك، أهدّك كما بنيتك.

- نامى وإلا جعلت ليلتك سوداء.

- إن كنت رجلا ضعْ إصبعًا عليّ، مجرد أصبع. سوف أصوّت وألمّ عليك الشارع.

- أنت غبية، جاهلة.

- سأفتح الباب وأصرخ، ليـرى الناس أن فتحى عبـدالكريم المشهور، مجرد.. مجرد حشرة حقيرة.

ترك الحجرة وذهب لينام بجوار فاتن، أحست به الطفلة فقالت:

- بابا بابا أحبك يابابا.

احتضنها بينما دموع تنزل من عينيه.

* * *

(١٧)

− × + = −

+ × − = −

+أ −ب = +أ−ب

فى ليالى الشتاء نحلم بالدفء
وفى الصيف نشْتهِى البرودة
وبينَ الشتاء والصيف
لا تتوقف الأمواج

قالت مدام زينب لزوجها:

- لابد أن تتصل اليوم بالأستاذ خالد.

- خيراً؟

- نقلوه من المجلة، أقصد رُقى، مستشاراً فى وزارة الخارجية.

- إنه صديق قديم، ويستحق كل خير، وإن كنت أظن أن العمل فى الداخلية يناسبه أكثر.

- فى المجلة كلهم فرحون.

- ليس خالد بالرجل السهل.

- المصيبة أنهم يظنون أن فتحى وراء إبعاده عن المجلة.

- لأنهم لا يعرفون من أين يأتى المطر؟

- فتحى صارت له شعبية واضحة لدى كل الموظفين، ولكن..

- لكن إيه يا زيزى؟

- كل يوم يمضى يتأكد لى أن بين فتحى وأميرة علاقة غرامية.

- ألا تعرفين لعبة الكوتشينة؟

- كيف؟

– هذا الخبر هو الورقة التى تلعبين بها عند اللزوم ضد أى واحد منهما.

* * *

– أهلا أستاذ نعيم.

– أهلا يا أستاذ ربيع، منذ توفى حازم لم أزر المجلة.

– رحمه الله.

– كنت أود مقابلة الأستاذ فتحى.

– أى خدمة؟

– أريد نشر مقال فى المجلة.

أعطاه المقال فقرأ ربيع العنوان «على الزعماء العرب أن يتحملوا مسئولياتهم».

– هناك مؤامرة على الأمة العربية.

– بكل أسف، العرب أنفسهم يساعدون أعداءهم دون وعى على تنفيذ مخططاتهم.

– ما يحدث للفلسطينيين الآن – يا أستاذ نعيم – فى الأردن كارثة.

– ما يقتل من الأحرار نتيجة الغدر أكثر مما قتل بيد الأعداء فى أى معركة.

- المصيبة أن معظمهم يتفرجون.

- كلما قلنا إن ما نراه آخر فصل فى المأساة يأتى ما هو أبشع.

- إذا لم نستيقظ فسوف نرى الويل.

دخل فتحى متجهماً. سلم ثم ارتمى متهالكاً.

- سمعت أن هناك تفكيراً فى الدعوة إلى مؤتمر قمة فى القاهرة؟

- إذا لم تستيقظ القاهرة - واصل نعيم - فقل على الأمة العربية السلام.

- مصر قلب الأمة إذا صلح صلحت...

- استأذن حتى لا أعطلكم.

صافحهما وخرج بعد أن ودعاه.

- أمامنا شغل كثير يا ربيع. التوزيع زاد ثلاثة آلاف فى العددين الأخيرين، لابد أن نحافظ على هذا المستوى بعد أن ذهب النحس.

ضحكا من الأعماق. قال ربيع:

- البركة فيك أنت الآن المسئول الأوحد.

- كلنا مسئولون، اليد وحدها لا تصفّق.

- لو سمحت يا فتحى. طلبت منى الحاجة هدى أن تتغدى معنا اليوم.

قال فتحى وهو يتناول الشاى فى منزل ربيع:

- سلمت يداك يا حاجة هدى، من زمان لم أذق طعامك الحلو.

- يبدو أنك نسيتنا أيضاً يا فتحى بك.

- اسألى ربيع، عن المجلة والشغل.

قال ربيع: أنت فى بيتك يا فتحى، سأذهب لصلاة العصر.

- اسمع يا أستاذ فتحى.

- نعم.

- من أجل خاطرى أنا والحاج ربيع، اهتم بمدام نظيرة. أنا امرأة وأعرف شعور المرأة حين يركبها وسواس الغيرة.

- أصبح التفاهم بيننا مستحيلا.

- كيف؟

- لم أعد أتحملها، ولم تعد تصدقنى.

- ما آخر كل هذا؟

- لا أعرف.

- لا، تعرف، وتعرف، ربيع قال إنك مصرّ على الزواج من أميرة.

- ربما حدث ذلك، وإن كانت أمها غير موافقة.

- وأبوها؟

- لم يعرف بعد.

- صدقني يا أخي. سوف تتعب وتهد عشك.

- ما فعلته نظيرة لن أغفره لها.

- خسارة.. وألف خسارة.

عاد ربيع يمسك بمسبحة سوداء، وقال:

- الطلاق يا فتحي أبغض الحلال إلى الله.

- من قال إنني سأطلق؟

- تفتح بيتين؟

- سأترك البيت القديم بكل ما فيه، وأفتح لأميرة بيتاً جديداً.

- هل تظن أن نظيرة ترضى بأن تعيش هكذا مثل أرض الوقف؟ تساءلت هدى.

- من حقها أن تطلب الطلاق، وأن تستجيب المحكمة. رد ربيع.

- جئت لكي أستريح فنصبتم لى الميزان، على كلٍ أشكركم على الغداء وأستأذن.

ودّعاه إلى الباب.. قالت هدى وهي تغلق الباب:

- يبدو أنه مصرّ.

- لقد ضايقناه كثيراً. هذه حياته الشخصية من حقه أن يستريح كما يشاء.

- هكذا أنتم يا رجال.

- إنه لم يرتكب إثماً يا حاجة. الرسول عليه السلام نفسه تزوج أكثر من مرة.

- طبعاً تدافع عن صديقك.

- أقول الحق وأجرى على الله.

* * *

خرج فتحى من عند ربيع. أحس أن الأرض تضيق به. العمل هو الخلاص الوحيد. توجه إلى مقر المجلة. الساعة السادسة من مساء ١٥ سبتمبر ١٩٧٠. معظم الموظفين غادروا المجلة. قابله إسماعيل الفراش عند الباب:

- ظننت أن سيادتك لن تعود فى المساء.

- يمكن أن تذهب إلى بيتك.

- بيتى الأول هو المجلة يا فتحى بك.

رنت فى أذنيه جملة إسماعيل «المجلة بيتى الأول»، هذا الرجل البسيط توصل إلى نفس المعنى الذى أدركه منذ لحظة. العمل هو العاصم من أى زلل. العمل بالنسبة لفتحى حياته، أمله، العمل هواية

قبل أن يكون حرفة وإلا..

- قهوتك يا أستاذ فتحى.

- مبسوط يا اسماعيل؟

- الحمد لله. رضَى، الرضى أساس السعادة.

- تقول كلامًا كبيرًا يا عم اسماعيل.

- العفو. أنا رجل على قد حالى، لكن الحياة علمتنى.

- إيه؟

- القناعة مفتاح السعادة.

- عندك أولاد؟

- ثمانية، ثمانية فقط يا سعادة البك.

- ما شاء الله.

- سامى فى الطب، سلوى فى التجارة، ممدوح ميكانيكى، والباقون فى المدارس.

- أىّ مدارس؟

- لا أدرى، يذهبون فى الصباح كل يوم، وفى آخر السنة ينجحون وآهى ماشية، وقل يا باسط.

ضحك ملء فيه. تعجب من بساطة الرجل وذكائه. أول مرة يدخل فى حوار معه. أحياناً يرى الإنسان كثيراً من الأشياء البعيدة، ولا يرى أقرب الأمور إليه. يعرف إسماعيل من عشرين سنة، لكن

لأول مرة يكتشفه.

– تقبل تحيتى يا سعادة البك.

– إيه؟

– سيجارة فلاحى، تروّق الدم.

سيجارة محشوة، ناوله إياها ثم أكمل:

– بصراحة يا فتحي يا ابنى صحتك لا تعجبنى هذه الأيام.

– كيف عرفت؟

– من عينيك، العين أصدق لسان.

– تعبان.

– مم؟

– الشغل، والمسئولية.

– طول عمرك تعمل كثيراً، لا. أنت تخفى شيئاً.

– مطلقاً.

أحس أن الرجل ببساطة يحوطه بشيء من الحكمة والحنان الأبوى.

– أقول بصراحة؟

– قل وأمرك لله.

– أنت تحبّ.

– لا، مستحيل. من قال لك؟

– أنا أب، أب يا فتحى بك لثمانية، وأعرف أنه لايهدّ حيل الرجل إلا امرأة. أبونا آدم أخرجته من الجنة حواء.

– فيلسوف ولا أدرى؟

– ولّع يا بك، حتى تنسى. أقول لك نصيحة: الخسارة القريبة أفضل من المكسب البعيد.

ذلك الفلاح الفصيح كان يصوب إليه طلقات حادة، تعالج جروحه. هل يدرى؟ ماذا يقصد؟ خشى أن يفتح له صدره. حينما يكون الإنسان منكسراً فسهل أن يتبسط مع أى إنسان. لكنه آثر عدم الوضوح.

– تريد شيئاً يا بنى؟

– مع ألف سلامة.

– أكون سعيدًا لو طلبت منى أى شىء.

– أطال الله عمرك.

حاول أن ينزل ليمر على المطبعة، أحس أنه عاجز عن الحركة.

أمسك التليفون واتصل بالمشرف:

- كيف الحال يا باشمهندس؟

- .....

- انقل لى الأخبار أولاً بأول.

فتح الشباك الزجاجى.. أطل على الشارع. الحركة صاخبة. كل شىء على ما هو عليه. الظلام ينزل على القاهرة. تمنى أن يهد القاهرة، يهدها على كل من فيها، وأن يعيد بناءها من جديد.. مدينة.. مضيئة.. متحضرة. يجد فيها كل إنسان الأمان والحنان. إذا ضاع الأمان فلا إيمان. حتى البشر ودّ لو يعاد خلقهم من جديد.

دق جرس التليفون بشدة:

- أيوه... من؟

- .....

- كيف حدثت هذه المذابح؟

- .....

- سأرسل لك مندوب المجلة فوراً.

وضع التليفون فى عصبية، ثم أمسك التليفون الداخلى:

- احضروا الأستاذ بريقع من تحت الأرض. تحت الأرض مفهوم.

- آلو... المطبعة؟ أوقف طبع المجلة يا باشمهندس، حدثت مذبحة للفدائيين فى الأردن ولابد من تغطية هذه الكارثة.

* * *

أحس أنه يواجه تحديات صعبة على جميع المستويات. اسمه صار له وزن كبير فى الأوساط السياسية والصحفية، تناثرت إشاعات عن احتمال ترشيحه لوظائف أعلى رغم أن السلطة تهابه، لأنه لا يهادن ولا ينافق.

فتحى عبد الكريم: ماذا تقبل أن تكون: مسئول الدعوة والفكر فى الاتحاد الاشتراكى، أم رئيس تحرير الجريدة الرسمية «أبو الهول» وتكتب المقال الأسبوعى يوم الجمعة ليقرأه الناس فى بيوتهم حرفاً حرفاً.. أم رئيس مصلحة الاستعلامات؟ لا، لقد بنيت سمعتى عن طريق الصحافة، لن أقبل سواها. العمل السياسى مقامرة أكثر منه مغامرة. سرعان ما تتغير الأحوال وتدور الدائرة. سأظل مستقلا فى الفكر والسياسة حتى لو عادت الأحزاب من جديد. أحس أن عظامه مكسرة، ويافوخه وقلبه ممزقان. القلق يؤرقه فى الفكر والعمل والبيت.

لم يكن من السهل أن يرضى بأى شىء. الحلم يطارده فى كل مرحلة وناحية. أخذ يقلب أوراق نتيجة المكتب أمامه. فى الدور الأخير من مبنى المجلة حيث يوجد مكتبه. لا أحد. لا أحد سواه. كل الموظفين والمحررين الآن فى بيوتهم يضاحكون أطفالهم أو

يدلكون ظهور نسائهم، هو وحده هنا. أحس أنه تركيبة خاصة يتضافر فى تكوينها: «بروميثوس» سارق النار المقدسة من أجل سعادة البشر، و «عنترة بن شداد» حامى القبيلة والباحث عن الحرية والحب، و «هاملت» الحائر بين الانتقام والعدل، بين الفكر والعمل، و «عبد الله النديم» الصحفى الثائر، المحارب بالقلم. لا شىء يجعلنا عظماء سوى حلم عظيم. عاش طول عمره يحلم بالوحدة العربية، بحرية مصر، بالعدالة والديمقراطية، وأخيرًا حلم بالحب. بدأ الحب يتحقق ترى هل ستتحقق بقية الآمال؟ أشعل سيجارة وتأمل الدخان وفنجان القهوة الفارغ وخريطة العالم أمامه. جعلته أحلامه دائمًا قلقًا.. مهمومًا رغم أنه حاول منذ صغره أن يحافظ على وصية قالها له أبوه وهو يحتضر:

- يا بنى امش معتدلاً يحتر عدوك فيك.

عاش طوال عمره أمينًا.. مخلصًا. لكن جرثومة القلق كانت تسرى فى كيانه. نشأ فقيرًا.. وحيدًا، لكنه بالثقافة والفكر السياسى أصبح يؤمن أن طريق الخلاص الفردى مستحيل، لذلك وهب حياته وفكره للجماهير، الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج. فى زحمة الكفاح نسى نفسه وأهمل عواطفه. حين أحب أحس أنه ممسوس أو ملعون. الحب الحقيقى فى زماننا أندر من الكبريت الأحمر. لكن الحب جاءه بنفسه، ومن فتاة نادرة تؤمن به مثالا فوق الحياة والأحياء. ترى لو كان ربيع مكانه هل سيفعل

ما فعل؟ لم يارب ألقيت على ظهرى كل أعباء البشر أجمعين؟ هلَ أنا من طينة غير الآخرين؟ لو لم أكن كذلك لأصبحت مجرد محرر عادى فى أى مجلة أو صحيفة، ولم أعذب بكل ما أنا مشغول به ومحسود عليه؟ كل مجالات الكفاح تهون، إلا القضية الخاصة.. قضية القلب الحزين والبيت المهتز. لكن قدر الثورى أن يناضل فى كل مجال، وأن يحارب من أجل كل قيمة. النضال قدرك يا فتحى. والمناضلون هم الذين يحلمون... يحلمون دائمًا. الحلم يولد فى الليل، ويتحقق فى النهار.

نظر إلى ساعته فوجدها قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل. لم يشعر بحاجة إلى النوم، أمسك القلم يكتب مقالة عن مذبحة أيلول الأسود، وجلس ينتظر الفجر، فجر يوم جديد.

* * *

(١٨)

١ × ١ = ١

١ × ٢ = ٢

١ × ٣ = ٣

أقسم بالبحر الثائر
والخليج الساخر:
أن الخراف لها قُرون
والحمير لها ذيول

- لم أفهم منك شيئًا يا أميرة.

- ماذا تريدين ياماما؟

اعتدلتْ أميرة على سريرها، بينما الأم تجلس أمامها.

- لم اخترت فتحى ليكون زوجًا دون خلق الله؟

- لأنى أحبه.

- هذا كلام عيال، أنت كبيرة، متعلمة، من عائلة محترمة.

- أحبه، يا ماما.

- ترجمى كلمة أحبه هذه إلى لغة مفهومة، إلى شىء يقبله العقل، إلى حقيقة أقولها لأبيك المريض.

- أظن ياماما، أنك تعرفين البئر وغطاءه، وقد تعبت رأسى من الحديث معك، من الأفضل أن تقولى أنت سر اعتراضك على فتحى.

- متزوج، وله ولدان، وأكبر منك بخمس عشرة سنة.

- كونه زوجًا ويريدنى فهذا يدل على حاجته الحقيقية لى. أما مسألة السن هذه فلا تهمنى كثيرًا.

- لم؟

- سيدنا محمد كان فوق الخمسين ثم تزوج عائشة وهى فى العاشرة تقريبًا.

- عنيدة، تخربين بيتًا من أجل نزوة؟

انتفضت من السرير قائمة:

- بل من أجل بناء رجل أحبه.!

- لن أجعل والدك يوافق.

- لست قاصرة.

- جيل آخر زمن. ليتنى ماولدتك!

- ياليت!

* * *

- المجلة الوحيدة التى كانت على مستوى الحدث فى الوطن العربى هى مجلتنا.

قال بريقع فى حماس، بينما رد سمير:

- مقالات الأستاذ فتحى كانت طلقات رصاص.

- وهل أصبح الكلام مجديًا فى عصرنا؟ تساءلت أميرة.

- الكلمة الصادقة رصاصة بشرط أن تصوّب فى الوقت المناسب. قال ربيع.

- المفكرون والكتاب هم القادة الحقيقيون، الأنبياء أنفسهم غيروا العالم بالكلمة.

رد فتحى وهو ينقل نظره بين الجميع، بينما قالت سهام:

سمعت أن مؤتمر القمة على وشك الانعقاد فى القاهرة.

- فى بداية الأسبوع القادم - واصل فتحى - سنحاول جميعًا أن نلتقى بالملوك والرؤساء، لن تكون أحاديثنا معهم مجرد دردشة لتوزيع المجلة، أو أخذ معونة من سفارة دولة.

- ماذا إذن؟ تساءلت أميرة.

- سنحاول أن نأخذ رأيهم صريحًا فى الوحدة كيف تتحقق. فى المعركة وكيف تتم. حتى نسجل كلامهم للتاريخ.

علّق بريقع على حديث فتحى قائلا:

- اعتدنا على الكلام المنمق، لكن الفعل عندنا قد يأتى وغالبًا لا..!

- «لايكلف الله نفسًا إلا وسعها». تمتم ربيع.

- الواحد يؤدى إلى المليون. المهم الخطوة الأولى. وسنستمر حتى..

قاطعت أميرة فتحى مكملة: النصر.

ثم أردف سمير: أو حتى.. الموت!

- وكلاهما خير وبطولة. أضاف ربيع.

* * *

- أبحث عن شريف منذ مدة.

- لم يافتحى؟

- أريد أن أراكِ فى شقته.

- فلاح طيب.

- ما تقصدين؟

- هل تحسبنى أوافق؟

- وافقت من قبل.

- دار على شمعتك تقيد.

- لا أفهمك؟

- إذا أردت أن نلتقى فى ليلة..

- من ليالى ألف ليلة؟

- فشر. بينى وبين شهر زاد ألفة سنة.

- أين تريدين؟

- فى فندق على مستوى النجوم الخمسة.

- معظمها محجوز استعدادًا لوفود مؤتمر القمة.

– لقاؤنا أيضًا سيكون على مستوى القمة.

– ياشقية!

– لاحظ أننى أناضل من أجلك؛ أمى تشكّل جبهة رفض.

– قريبًا سوف تؤمن بالقضية.

– لست واثقة.

بقدر ما أحب أميرة، كان يلعن أمها، تمنى أن يلقاها حتى يفهمها الحقيقة. أميرة ذات منطق واضح. ترى لم لم تستطع إقناع أمها؟ شواهى أم الدواهى، إذا كانت ترفض زواج ابنتها منى، فمن تريد لها زوجًا؟ لو كنّا فى عصر الشاطر حسن والشاطر محمد لما فعلا ماسوف أفعله من أجلها. سأتزوجها غصبًا عنك ياحمّالة الحطب.

* * *

– أهلا يامدام سوزى.

بدت سوزى فى ملابسها السوداء قديسة كما وصفها حازم. وجهها يشع صفاء وثقة. هذه الشابة فى عمر الزهـور رأت من الأحداث ما يزلزل كيان أشجع الرجال، لكنها صابرة، صامدة. بدت أعراض الحمل واضحة على بطنها. ذلك الجنين المجهول تُرى هل سيكـون أسعد حالا من أبيه وأمه؟

– بصراحة يا أستاذ فتحى.. لقد فقدت زوجى الحبيب وأبى – نزلت دمعة فى صمت على خديها الشاحبـين – لكنى أحس أن لى

أسرة كبيرة، هى أنتم جميعًا. خاصة الأستاذ بريقع.

– العفو ياسوزى هانم – واصل بريقع – حازم كان لنا جميعًا أكثر من أخ.

– ألا تريدين أى مساعدة؟ قال فتحى.

– عرضت عليها أن تعمل معنا فى المجلة فرفضت.

– والله فكرة يا أستاذ بريقع؟

– سأكمل دراستى الجامعية، وأربى طفلى وإخوتى. ربما فكرت فى ذلك مستقبلا.

– ماترين.

– استأذن حتى أسلم على أميرة وسهام.

* * *

– اشتقت إليك، بعد أن تعبت من لقاء الشوارع فقلت نتقابل الليلة.

– اذن هذه ليلتى؟

– وأنت الأمير.

– لا، أنت الأميرة.

بدت فى قميصها الشفاف مثل حورية هربت من السماء ورفضت النزول إلى الأرض، فظلت معلقة بين عالم السموات

والأراضين. من المستحيل أن يكون الله قد خلق البشر على طبيعة واحدة. هذه الفتاة أسطورة، تذكرك بأفروديت ونفرتيتى وزرقاء اليمامة. كما ينظر البخيل إلى كنزه، تأملها فتحى فى حب وقداسة.

- تعبت من الدنيا كلها يا أميرتى.

احتوته أم حنون فى صدرها!

- تتعب وأنا معك؟

- العمل السياسى والشغل فى المجلة هدّا حيلى.

- قررت أن أكون لك وحدك ياحبى.

ازداد التصاقًا بها. قبل شفتيها وخديها وجبهتها هامسًا:

- أريد تحقيق كل الآمال معك.

- معجبة بك أنا، سأسهر على راحتك، حتى تصبح بطلا. لا، أنت بطل بالفعل.

- لم نعد فى عصر البطولة ياحبيبتى.

- لكل عصر أبطاله. لكن ألا تنوى أن نأكل؟

- الشرب هو الأهم.

- اسقنى ياحبيبى، اسقنى حتى يطلع الفجر؟

- سنشرب سنشرب حتى نرى الديك حمارًا.

خففت أضواء الغرفة. لمبة الأباجورة تشع ضوءًا حانيًا. غرفة فندق سميراميس بأثاثها البسيط ونسيم الليل يأتيها عبر النيل مثل عش هادىء ضم الحبيبين. أخرج زجاجة الويسكى من ثلاجة الغرفة.

- فى صحتك ياعزيزى.

- فى صحتك يازوجتى.

- ذكرتنى بما أريد نسيانه.

- الشرب لا ينسى يا حبيبتى وإنما يذكرنا بكل ما نحب.

أعطاها سيجارة وتأمل لوحة للأهرام وأبى الهول فى الليل، وتحتها عبارة بالانجليزية VISIT EGYPT

أشعل سيجارتين: القاهرة فى الليل ساحرة.

- بدأت تحلم يافتحى.

- مثل أحلام يوسف، سوف تنتهى قريبًا سنوات السنابل اليابسات.

- ماهى مشروعاتك القادمة؟

- سأكتب سلسلة من المقالات.

- عن؟

- وحدة الصف العربى ضرورة لقيام الحرب وتحقيق النصر.

- ثم؟

- البترول العربى ليس أغلى من الدم العربى.

- و..؟

- استيقظوا يا عرب.

- مازلت مؤمنًا بتأثير الكلمة.

اطفأ السيجارة وأخذ منها قبلة:

- الوسيلة الوحيدة للتفاهم بين الشر هى الإقناع..

تأمل صدرها ونحرها. تحسس كتفها وشعرها، حاول أن يضمها:

- دعنى حتى استمتع بلذة الشرب.

- أفضل المزة مع الشرب.

- أحب الشرب، نادرًا مايجد الإنسان من يستحق أن يشرب معه.

أخذت رشفة وتأملت سقف الحجرة. نظر إليها.

- متى توافقين على الزواج؟

- ماذا نفعل الآن؟

- زواج بالتقسيط.

- كم قسطًا أخذت؟

نظر إليها فى مودة بينما كانت تعض شفتها السفلى.

- من الغد تبحث لنا عن شقة.

جلس بجوارها أعطاها رشفة من كأسه، مالت على صدره. رائحة عطرها وصلت عموده الفقرى. ناعسة العينين نظرت، ضمت شفتيها. مئت لك!

* * *

(١٩)

متى + أين = كيف

بين المنى والموت
تسقط الأشجارُ
واقفةً.

- بحثت كثيراً عنك يا فتحى.

- خيراً يا شريف؟

- زوجتى سافرت. عندما أكون حزيناً لا يريحنى سوى كلامك.

- لا فائدة من الحديث معك. توقعت أن تصحو بعد موت حازم، لا حياة لمن تنادى.

- هل قصرت فى شىء؟

- عندك من الثروة ما يؤمن مستقبل عائلتك، كل ما يحدث لا يؤثر فيك. بريقع نفسه صار رجلاً. وأنت؟

- لغتك غريبة اليوم.

- حاول أن تعطى لتأخذ.

- ما المطلوب الآن؟

- مجـرد السؤال عما تفعـل دلالـة العجـز، ضـع نفسـك وسط الأحداث وستجد ألف عمل.

فمه ممتلئ بالمرارة، رأسه مشحون بالفكر. قلبه حزين. من أين يأتى الكلام المفرح؟ عاد أمس إلى البيت فـوجد طفليـه، وحيدين يبكيان. جمعت نظيرة أشياءها الخاصة. كسرت درج المكتب أخذت

النقود ودفتر الشيكات وساعة ذهبية. منظر البيت يدل على أنه توجد حالة سطو. الفوضى تسود كل مكان. احتضن الطفلين بين ذراعيه، قالت فاتن وهى لا تقدر على حبس البكاء:

- ماما سافرت يا بابا. أريد ماما، ماما.

بدا فاروق متماسكاً رغم شحوب ظهر على وجهه. لم ينم الطفلان ليلة غاب عن البيت.

- طلبت من ماما انتظارك. ضربتنى أنا وفاتن وخرجت.

قال فاروق وهو يتأمل ستارة غطت شباك الصالة، وحجبت الضوء.

كنت حريصاً على العشرة يا نظيرة. لكنك مجنونة، بيدك أنهيت كل شىء - مضى يحدّث نفسه - لا يمكن أن تشترى دون أن تبيع. هذا أسبوع التحدى يا فتحى. المسئولية السياسية فى متابعة أخبار القمة، إدارة المجلة، رعاية الطفلين، الاتفاق مع أميرة. أصبح من السهل أن يفرط فى نظيرة، لكن من المستحيل أن يفرط فى ولديه. سيكون بيتاً يضم كل الأحباب. زوجة أب عاقلة خير من أم جاهلة. المشاغل مثل المصائب، عندما تأتى تختار أحرج الأوقات. لوحة لشارع مليئ بالحركة والزحام معلقة على حائط الصالة. التاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٧٠، غير أن ورقة اليوم قطعت، ورقة الغد هى الموجودة.

* * *

- أستاذ فتحي، تعبت من الفراغ - واصل نعيم عدنان - يمكن أن تقبلونى عضواً فى المجلة؟

تأمل فتحى صورة عبد الله النديم، ونظر إلى ربيع باحثاً عن صدى السؤال. سكت برهة:

- شرف للمجلة أن يكون المناضل القومى واحداً من أسرة تحريرها.

- أنت واحد منا بالفعل يا أستاذ نعيم. تمتم ربيع.

- متى أعرف الرد؟

دخلت أميرة وبريقع مسرعين. العرق يتصبب من جبين بريقع، أميرة تلهث.

- أول سبق صحفى، قال بريقع.

- لما جرى فى الاجتماع الأول للقمة. أكملت أميرة.

- ماذا فعلتها؟ تساءل فتحى وربيع فى وقت واحد.

- ردت أميرة: الصحفى الناجح لا يقف أمامه عائق.

أضاف بريقع: الجميع متفقون على وقف المذابح وحماية المقاومة.

- أوقات الشدة - أضاف نعيم - تبرز بوضوح أخوة العرب وتؤكد حتمية الوحدة.

- مضمون الوحدة متحقق - أكمل ربيع - ما ينقصنا استيفاء بعض مظاهر الشكل.

- ما يحدث الآن - واصل فتحى - يزيدنا إيماناً بأن الوحدة قادمة، وأن معركتنا مع العدو ستكون معركة قومية.

- أين ما كتبتماه؟ تساءل ربيع.

- لم ينته بعد. ردت أميرة فى تعب.

- لن تخرجا من المجلة قبل كتابة التحقيق والتقرير.

قال فتحى بينما نظرت إليه أميرة فى تحد.

- أمر؟

- عمل.

- إذن نريد مكافأة استثنائية.

- موافق يا أستاذ بريقع.

* * *

قال سمير: لم نتعود منك هذه الاستقامة يا شريف

- زوجته سافرت - واصلت زينب - لذلك يأتى بانتظام.

- لا يا مدام - واصل شريف - الشغل شغل، قررت أن أقوم بدورى.

دخل إسماعيل يحمل صينية.

- شاى... قهوة... ليمون.

- هذه أيامك يا عم إسماعيل. قالت زينب.

- صدقينى والله يا مدام، إننى أفرح حين أجد كل الموظفين فى المجلة، الحركة بركة.

قالت سهام: جائعة ياعم إسماعيل.

- أيوه يا سهام هانم، مازلت فى شهر العسل.

* * *

عادت فى منتصف ليلة ٢٧ سبتمبر. لم يكن أبوها معتـاداً على السهر. حين فتحت الباب أحست بعض قلق.

- مساء الخير يا بابا.. سعيدة يا ماما.

- أين كنت يا أميرة؟

تساءل الأب وهو يحكم لف الروب حول البيجامة.

- فى المجلة، عندنا طوارئ.

- طوارئ فى أى شىء؟ تساءلت الأم فى تحد.

عملتها يا أمى، قلت لبابا. قلبى يحدثنى أن هناك مؤامرة. اخترت الوقت المناسب. يومان لم أسترح، ذهنى مشتت. لن أقدر على أى

دفاع، لأنى متعبة، متعبة. الصبر يارب أيوب.

- تعرفان أن مؤتمر القمة منعقـد حاليـاً، تصور يـا بابـا ابنتك العظيمة...

- لم تغيرين الموضوع؟ تساءل الأب فى حدة.

- ربيتنى على الصراحة يا بابا.

- الصراحة أم الإباحة يا نور عينى؟

- ماما.

- دعيها تتكلم يا أمينة.

- عم؟

- عن فتحى.

- تقصدين الأستاذ فتحى.

- ضعى فى عينك حصوة ملح.

- ماما... أنا؟

- أنا رجل قـانون، المتهم الـذكى يحاول أن يـدعى الجهل أو الإنكار.

- لم أكن أتصوّر أنك طيب إلى هذه الدرجة يابابا.

- ظننت أننى كبرت، عجزت؟ لا، حتى لو كنت عظاماً فى قفة

فأنا.. أنا قادر على تأديبك.

- أكسر للبنت ضلعا، يطلع لها أربعة

قالت الأم فى شماتة، وهما يتبادلان نظرة غيظ اخضر.

- أنت تعبان يابابا، من أجل خاطرى، نم الآن، سوف أقول لك كل شىء فى الصباح.

قامت حتى تقبّله. يد غاضبة تهاوت على وجهها بقوة مفاجئة.

- تضربنى يابابا؟ أول مرة تضربنى، هى السبب، جعلت منك الخصم والقاضى، كنت أظن أنك قاض فقط.

سكت أبوها، ولم يستطع مواصلة الكلام. لم يدر كيف تصرف؟ بينما قالت الأم: تسلم يدك يا سيد الرجال.

البرىء حين يشعر بالظلم، مثل السليم حينما تقرصه حية. لم تدر ماذا تفعل؟ لكن التعب والإهانة غير المتوقعة جعلاها تنتفض واقفة. جرت نحو الباب قائلة: لن تروني بعد اليوم.

* * *

فى الظلام وحيدة نزلت إلى الشارع. هدوء قاتل يسيطر على مصر الجديدة. انكمشت أميرة بجوار سور قصر البارون المهجور. لا تجد لنفسها أى مأوى، بينها وبين القصر سور حديدى مدبب. إيه يا قاهرة تتسعين لثمانية ملايين. ولا أجد طاقة رجاء، تمتدين من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، وكل الطرق

أمامى مسدودة، النيل يمتد، يمتد بين يديك وأنا... أنا عطشانة.

مشت فى شارع العروبة، بدا الطريق موحشاً، لا حس، لا حركة. المآذن البعيدة وقفت وحيدة فى الظلام.

بعد هذا العمر تضربنى يابابا. أول مرة تفعلها. طيب أنت، سمعت كلام أمى. ليست أمى، وإنما زوجتك. أنت مريض وهى سليمة. القوة تحكم الكون حتى فى بيتنا، أليس كذلك يا ماما؟

سيارة مسرعة، هدأت:

- إلى أين يا جميل؟

ماذا أقول لذلك الوقح؟ لا شىء.!

- نذر على يا جميل لو زرتنى...

الكلب يزداد نباحه لو حاولت أن تقذفه بحجر. مضيت فى طريقى. رطوبة منعشة تسرى فى الجوّ، شواهد قبور الدراسة تبدو من بعيد. على اليمين الأحياء وعلى اليسار القبور. الجميع صامتون. هناك علاقة بين النوم والموت. أين أنت الآن يا فتحى؟ كل هذا بسببك. أمر غريب. أحببت رجلاً لا أعرف له عنواناً؟ كل شىء أصبح متوقعاً فى هذه الأيام السوداء. فتحى أين أنت؟ أين الطريق يا فتحى؟ متى يأتى النهار يا قاهرة؟

مرت شاحنة ضخمة تهز الشارع. دخان كثيف ينبعث خلفها. أحسست أن الدخان يلف المدينة، أسير، أسير وحدى فى الظلام. والفجر لا أدرى متى؟

* * *

(٢٠)

ليل × نهار = دنيا

الأنهار العذبة
تصب فى البحر المالح
والبحر ليس بملآن

قال بريقع: انتهى المؤتمر.

فرد ربيع: كنت أنتظر قرارات أخطر.

– على كل المؤتمر أدى مهمته. تمتم شريف.

– حدد وضع المقاومة، وقرر زيادة دعم دول المواجهة. أضاف سمير.

– كنت أتمنى شيئاً يتصل بالقضية الأساسية. بالمعركة، ولكن... تمتم فتحى مكتئباً.

دخل إسماعيل فجمع الأكواب الفارغة.

– قهوة أخرى ياعم إسماعيل.

– شربت قهوة كثيراً اليوم يا أستاذ فتحى، لم لا تجرّب الينسون، يروّق الدم.

– ويريح الأعصاب. أضاف بريقع.

– نحن فى حاجة إلى أسبوع أجازة.

علق شريف، بينما قال ربيع: عادت ريمة...

– لم تحضر أميرة اليوم؟ تساءل سمير.

– يبدو ذلك.

نظر فتحى إلى ساعته. الحادية عشرة صباح ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠. الجو حار. بدا على الجميع الإرهاق. قال ربيع:

- يبدو أننا عجّزنا، أصبحنا نتعب كثيراً.

- لا راحة فى الدنيا. رد شريف.

خرجوا وتركوه وحده. كان السؤال الذى يشغله أين أميرة؟ لم تقل له إنها تنوى أن تغيب اليوم. سألوا عنها فى البيت فلم يجدوها.

دخلت سهام.

- خيراً يا مدام؟

- سألت عنها، أمها رفضت أن تقول شيئاً مفهوماً. كانت نبرات صوتها متغيرة، لا أدرى لم؟

أحس مسماراً ساخناً يكوى أعصابه. قلبى منقبض. فى الأمر سر، سر خطير، قلبى لايكْذبنى خاصة فى مواقف الحزن. إيه يا أميرة. ماذا حدث؟ فتاة لا مبالية، تتصرف بطفولة وطيش، لم ربطت حبالى بها؟ من يكلف الأيام ضد طابعها يتطلب فى الماء شعلة نار؟! حين أراك سوف... سوف أعاتبك وأحاسبك.

قطعت زينب خيوط العنكبوت فى رأسه:

- السبت القادم عيد ميلاد ابنى ياسر، لابد أن نراك أنت والمدام، لازم تحضر المدام.

ضغطت على مقاطع الجملة الأخيرة، ثم نظرت إليه نظرة ذات مغزى.

- إن شاء الله.

- وعد، تحضر المدام معك.

ماذا تريد هذه الأرنبة المنتفخة. اشمتى يا زوزو هانم، لك يوم.

* * *

وصل الإسكندرية وقت الأصيل. فى محطة الرمـل، أوقف فتحى سيارته، ونزل يبحث عن أميرة. هربت من القاهرة. ماذا حدث. كيف وصلت؟

أخذ يبحث عن بنسيون نورماندى فى محطة الرمل.

- لم تضرب الجرس بشدة؟

ظهرت سيدة يونانية عجوز فى الستين، ما تزال عليها سمـات أناقة واضحة وأنوثة غاربة.

- آسف، مدام.

منظره يدعو للشفقة والرثاء. التعب يطفح من كل خلاياه.

- أنا فتحى، أميرة؟

- آه... أنت الحبيب.

- أين هى.. كيف خرجت.. ومتى؟

- تبدو مزعجاً.

- أريد أن أطمئن.

قدمت له زجاجة كوكاكولا من ثلاجة مجاورة. الشقة أثاثها بسيط. هناك لمسات فنية فى كل ناحية.

- تحبها؟

- نعم.

- الحب عندكم مشكلة... مشكلة كبيرة، لم؟

- لا أدرى.

- طريقتكم فى ممارسة الحب خاطئة.

- ليست فى الحب وحده.

تبادلا نظرات صامتة. هبت عليه نسمة حانية من نسمات البحر. حين يرى أميرة لن يتركها هذه المرة، الخسارة القريبة أفضل من المكسب البعيد، هكذا قال إسماعيل ببساطة. مع أميرة ليس هناك خسارة على الإطلاق.

- أين أميرة؟

- سوف تأتى... أرح نفسك.

- راحتى أن أراها.

* * *

جلست فى إنكسار ترقب تمثال محمد على. شىء ما يشدها نحو هذه الشخصية العجيبة. كل شجرة هزها الريح، لكل إنسان كبوة. المهم أن يبقى منه شىء للتاريخ. تأملت عمامته الغريبة وفرسه الأصيل وتذكرت فتحى. أين أنت الآن يا فتحى.

لقد حاربت من أجل حبها له. تنتظره مثل الأرض الخصبة. هل سيأتى؟ متى؟ لم تكن تحسب يوم أعجبت به أن كل هذا سوف يحدث، ليس الحب حلماً ورديًا كما تصورت. حتى الحب طـريقه مليىء بالوحل. ترى هل يعانى بقية الناس بالقدر الذى نعانيـه. تعبت يا مصر وتعبنا معك. أصبـح مستحيلاً السفـر. متى ينزل المطر؟

لم أكن أنتظر ما حدث يا أبى. تضربنى بعد هذا العمر. أدنتنى قبـل أن تحـاسبنى. فى أى شـرع يجـوز هــذا؟. كله من أجلك يا فتحى. ولو أنك تحملت مثلى. كيف نسعد بالحب وقد خضنا فى سبيله كل هذه الآلام؟

* * *

مع قدوم الليـل جلس فتحى على سـور البحر أمـام نصب

الجنـدى المجهول. متى تهـدأ يا فتحى؟ القلق قـدرك.. قلق على الوحدة والحرية والمحبة. الآمال السامية لا تأتى على أطباق من فضة. الذى يريد شيئاً لابد أن يدفع المهر غالياً. سقط العمر قطرة قطرة. الأرض لا تحتاج إلى قطرات، وإنما إلى سيل. علت أصوات الموج. رعشة سرت فى كيانه. انقباض يعتصر قلبه. أميرتى أين أنت.. متى نلتقى.. متى تنتهى رحلة العذاب وينزل المطر؟

* * *

أدرك فجأة أنه قريب من تمثال محمد على، مضى ينقل خطواته فى بطء وضعف. الترام يتلوى على الأرض. اصطدم بمجذوب يلبس ثوباً أخضر، ويحمل عصا من جريد. لوح فى الفضاء بالجريدة صائحاً:

أوع م الترمس النىّ
الندل ميّت وهوّ حىّ

نظر إلى التمثال بعين مريضة. شبح يجلس فى حماه. من يكون؟ غريبة. لا. معجزة. من؟. قفز بفرحة طفل.

– أميرة.

تعانقا وتكلمت الدموع.

– من قال لك؟

– قلبى.

وضع يده اليسرى على كتفها بينما لفت يمناها خصره. سارا ناحية شارع البحر.

- أخيراً تحقق الحلم.

- تحقق يا حبّى.

عندما ابتعدا عن ساحة التمثال سمعا أصوات نحيب. بكاء. المدينة فى مأتم.

- عبد الناصر مات؟

الفكر مشتت، القلب متصدع. أصوات البكاء الجماعى ترتفع. صوت نادبة:

دارك وسيعة وبابها عالى
يا ميت ندامة صبحت بلا صارى

تاها وسط الجموع أمام تمثال سعد زغلول. من وضع تمثال سعد بحيث ينظر إلى البحر وظهره إلى المدينة..؟

- عبد الناصر مات.

- مستحيل.

- قتل.

- مات.

- مات من سنة ١٩٦٧.

يا أمه خطفه الطير من شاشه
وأخويا ع الديوان ما حاشه

تحولت المدينة فى لحظة إلى مأتم كبير.. مواكب جنائزية فى كل مكان. كل جماعة تحمل نعشاً حقيقيًّا. النعش خال. الجنازة حارقة.

نسيا كل شيء.. ضاعت القطرة فى البحر. الحزن مسيطر. الناس حيارى. الموكب الجنائزى مستمر. عانقت كفه كفها، وهما يحاولان السير فى طريق آخر ناحية البحر...

– تعبت يا أميرة؟

– لا. لا أدرى.

– نعود للبنسيون؟

– ليس قبل أن أرى الفجر...

٥ أكتوبر ١٩٨١

كتابات أخرى للمؤلف

١ ـ عمار يا مصر (مجموعة قصصية)	الهيئة المصرية ١٩٨٠
٢ ـ الدموع لا تمسح الأحزان (مجموعة قصصية)	دار المعارف ١٩٨٠
٣ ـ الممكن والمستحيل (رواية)	تحت الطبع
٤ ـ حكاية شرخ فى الجدار (وحكايات أخرى)	تحت الطبع

رقم الإيداع		١٩٨٤ / ٣٩٠٨
الترقيم الدولى	١-٠٩٢٤-٠٢-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٣ / ٢٢٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه الرواية

تعكس رؤية شاملة لأزمات الواقع العربى وسط ظلال النكسة ، وشخصياتها تتسم بالجرأة والتحدّى ، وتخوض أكثر من صراع فى نفس اللحظة ، ليعيش القارئ معها حياة روائية يحسّ فيها أنه واحد من الذين يشكلون عالمها بالحلم أو بالحق ، ويستشرف معهم ملامح أفق بعيد ، ترسم صورته : طلقة فكر من أجل لحظة ضوء ، وكسرة خبز لا تؤكل بالجبن ، وقبلة يمتزج فى رحيقها الدم بالعشق .

وهذه التجربة تطمح إلى تعديل الرؤية وإثراء مسار الرواية المعاصرة من خلال أسلوب شاعرى ، يعزف على إيقاع متميّز ، قدم به المؤلف من قبل مجموعتيْه « عمار يا مصر » و « الدموع لا تمسح الأحزان » ..

ص
١٧٠

مطابع دار المعارف